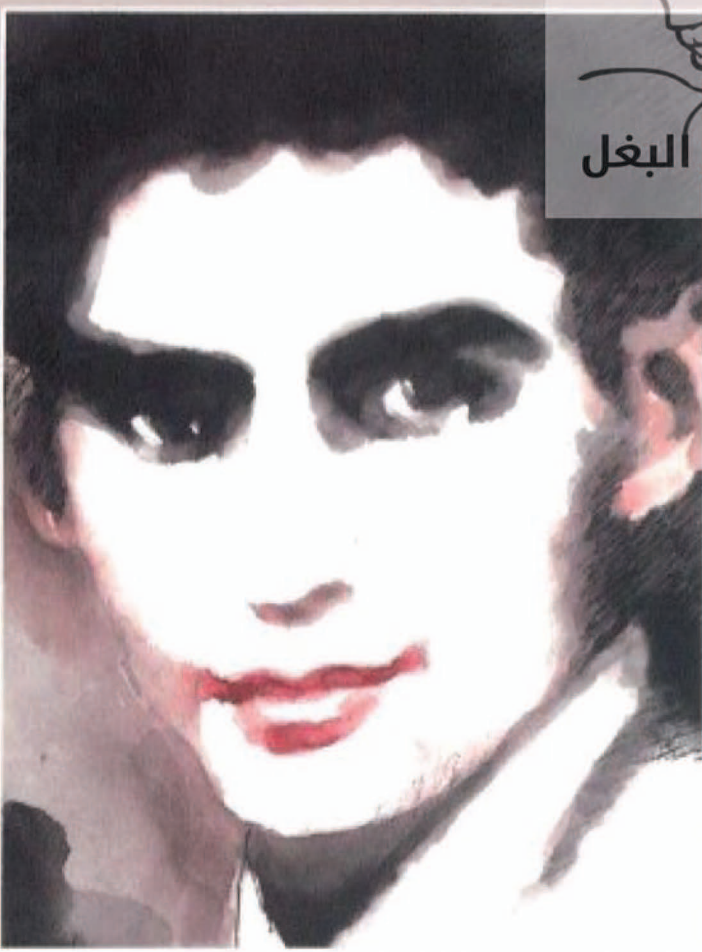
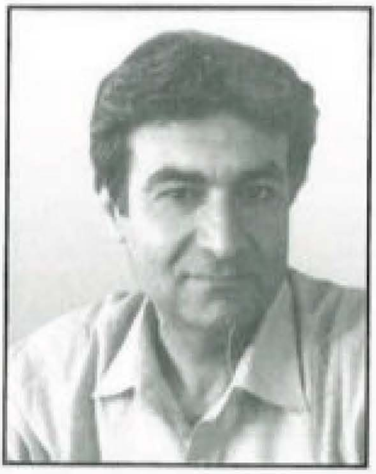
نيروز مالك

زهور كافكا

رواية





نيروز مالك

- وُلد في (حلب) عام 1946.
- انتسب إلى مركز الفنون التشكيلية وتخرج منه في عام 1963 بدرجة جيد.
- أقام معرضه الأول بالاشتراك مع صديقه الدكتور "حيدر يازجي" في عام 1965.
- شارك بمعرضه الثاني مع صديقه الدكتور "مأمون فنصة" وذلك في عام 1965. كما ساهم بالمشاركة في معرض الربيع الرسمي بحلب بثلاث لوحات زيتية.
- قطع صلته بعالم الفن والرسم خلال النكسة 1967، وتحول إلى الكتابة القصصية.
- نشر أول قصة في ملحق الثورة الثقافي في عام 1969.
- مزّق جميع ما كتبه ونشره في الصحف والمجلات المحلية والعربية عام 1973.

صدرت له المجموعات القصصية التالية:

- الصدفة والبحر
- حرب صغيرة
- كوب من الشاي البارد
- كتاب الوطن
- أحوال البلد
- باب خشبي قديم
- المغامرة السابعة
- ما رواه الجليل
- تلك الحكايات

زهور كافكا

زهور كافكا

الناشر: مركز الإنماء الحضاري -حلب

الطبعة الأولى : 2000

التنضيد : دار كنعان (دمشق)

الإشراف الفني: لبنى حمد

لوحة الغلاف: للفنان احمد برهو

تصميم الغلاف:

جمال الأبطح

CEC

مركز الإنماء الحضاري

CENTRE-ESSOR ET CIVILISATION

للدراسة والترجمة والنشر

نيروز مالك

زهور كافكا

رواية

مركز الإنماء الحضاري

قال لي الدكتور«عبد الجواد حسن» رئيس قسم الأمراض النفسية السابق، وهو يحمل حقيبته ليودعني خارجاً من الغرفة التي آلت إليّ مع منصب رئيس القسم. قال ناصحاً: حاول أن تدرس حالة المريض رقم 16، إنها نموذج مثالي، فريد للانفصام في الشخصية. ابتسمت له دون تعليق.

كان لي سبع عشرة سنة من العمر عندما سمعت أول مرة باسم «كافكا»، وذلك على لسان صديقي «فاروق»... أذكر أن الصديق تكلم عنه بإعجاب وحب. ثم حدثني عن بعض ملابسات حياة الكاتب. وعن عذابه الشخصي وموته المبكّر قبل أن يبلغ الواحد والأربعين من العمر.

في تلك السنة كنت في نهاية الدراسة الثانوية... وكان طموحي أن أحصل على مجموع جيد يخولني الانتساب إلى كلية الطب.

بعيداً عن «كافكا» وحياته وقصصه التي لم اقرأ منها أية واحدة.. وفي امتحان نهاية السنة، تحقق لي ما رغبت فيه، فدخلت كلية الطب بامتياز...

... وفي سنوات تخصصي في الأمراض العصبية، استقر ميلي

إلى البحث والدراسة... كنت أتمنى لو أستطيع أن أوفق ما بين دراستي النظرية وعملي المهني كطبيب، لذا، بعد الانتهاء من تخصصي، شعرت برغبة في أن أعمّق دراستي في مجال الأمراض النفسية، فطلبت تفرغاً في الجامعة لدراسة هذه الأمراض... وما أن حصلت على الموافقة حتى حملت متاعي ذات يوم خريفي دافئ، وتوجهت إلى المشفى للدراسة والمطالعة...

أذكر أنه، ما بين دراستي في كلية الطب وتخصّصي وخدمتي العسكرية، كان قد مضى ثلاث عشرة سنة... وخلال هذه السنوات لم أسمع فيها شيئاً عن «كافكا»، ولم أقرأ له، أو عنه... وكان صديقي «فاروق» قد سافر إلى أوروبا وانقطعت عني أخباره...

أستطيع القول، عندما اقتربت من المشفى، كان منظره الخارجي مريحاً للنفس والنظر... غابة صغيرة، يحيط بها سور جداري يعلو بمقدار مترين أو أكثر، ينتصفه من جهة الشرق باب حديدي عريض وواسع، أسود اللون، وأمام الباب يقبع رجل ضخم الجثة كالدب.. وما أن تنظر إلى عينيه حتى تصاب بحالة رعب وتنتابك بعد ذلك رغبة في الفرار والتواري عن أنظاره...

كنت أعرف أسباب اختيار حراس ضخام الأجسام لمثل هذه المهمة أمام باب المشفى... والمشفى هذا، في آخر الأمر مكان لأناس مصابين في عقولهم، مجانين كما هو شائع عنهم بين الناس.. أي يمكن لأي مريض منهم أن يرتكب جريمة دون أن يعي ذلك فهو مجرد مجنون لا غير!

أمر لا أريد أن أخفيه، وهو أن الشعور المريح الذي شعرت به، وأنا أقترب من المشفى الذي بدا من بعيد كأنه غابة صغيرة، تبخّر

لدى رؤيتي للحارس الضخم عندما نظرت إلى عينيه... كان قد أخذ يقيسني بنظره من أسفل رأسي إلى قمته عندما وقفت أمامه، كأنه لا يصدق أني الطبيب الجديد..كان ينظر إلي كنظرته لنزيل حديث مصاب في عقله.

ولم يمض مساء اليوم الأول لي في المشفى حتى أصبت بإحباط. قلت لنفسي: هذه ليست مشفى إنما سجن لمرضى في عقولهم!

في ذلك المساء دخنت أكثر من المعتاد لي أن أدخنه من السجاير، ولم أقدر على النوم إلاّ في ساعة متأخرة جداً من الليل، ولم أستيقظ في اليوم الثاني إلاّ في الساعة العاشرة... أنا الذي تعودت أن أستيقظ، دائماً، ومهما كانت الظروف، وتحت أي ضغط كان، في السابعة صباحاً...

أحاطت بي مجموعة من الممرضين والممرضات، طافوا بي، بناء على رغبتي، في أقسام المشفى... كما أني زرت المطبخ والحمامات والأماكن الخاصة بقضاء المرضى حاجاتهم الطبيعية، ثم تجولت في الأماكن التي يقضي فيها المرضى ساعات النهار. ومررت بشكل سريع على العنابر والغرف التي يقيم فيها المرضى جماعة... أو أولئك الذين يقيمون فرادى لخطورتهم..

في ساعة الظهيرة، طلبت من عثمان السيد رئيس الممرضين أن يجلب لي بعض إضبارات المرضى، بدءاً بأولئك الذين لا أمل في شفائهم، والمرضى الذين لا خطر منهم، أن أطلقنا لهم قليلاً من الحرية في التجول في حدائق المشفى، والمرضى الذين في بداية مرضهم... ثم طلبت منه أن يطلعني على أوضاعهم الاجتماعية-أقصد

أوضاع ذويهم المادية...

ظللت في تلك الليلة ساهراً حتى الساعة الواحدة من صباح اليوم التالي. فوجدت نفسي في غيهب لا يمكنني أن أجد فيه طريقاً إلى النور! كلهم مرضى وصلوا إلى حالة يائسة لا أمل في شفائهم... كان معظمهم من أسر فقيرة معدمة، وبعضهم لا أسر لهم...

ضحكت في سرّي وقلت، أيمكن أن يكون هؤلاء المرضى جميعاً مصابين بأمراض عصبية وليس بينهم مريض واحد مصاب بمرض نفسي كما تقول التقارير والإضبارات؟

وفي صباح اليوم التالي وصلت إلى قرار: يجب أن أتيقّن من حالة كل مريض منهم، وأن أعاين درجة مرضه، وأميّز بين مرضى النفس ومرضى الأعصاب. قلت، أنت في مشفى للمجانين.. لذلك يجب أن تبدأ بهدوء وليس بك حاجة إلى العجلة.

وبعد أن أمضيت أسبوعاً في المشفى استطعت أن أمسح، كما يقولون، أحوال المشفى، وأكشف عن الخدمات والممرضين والممرضات وأحوال المرضى... لذا قلت، يجب أن أخط جدول عمل لي... وقلت أيضاً: عليك أن تطالع وأن تعاين وأن تقارن... ومن جهة أخرى، عليك أن تضبط أمور قسمك الذي تترأسه، لأن ما يجري فيه -هذا ما لمسته- يجب أن لا يستمر، فإلى جانب الإهمال وجدت المعاملة غير الإنسانية التي يعامل بها المرضى من قبل الممرضين والممرضات... ولا أبالغ إن قلت، إن علاقة بعض الأطباء بالمرضى لم تكن بأفضل من علاقة الممرضين بهم. وإلى جانب هذه الأمور الشاذة وغير الطبيعية، وجدت أن المشفى كان مجالاً للنهب والسرقة من قبل المشرفين عليه... ولا أستبعد أن يكون بعض الأطباء شركاء لهم...

في الليل لم أنم باكراً كعادتي، ظللت ساهراً أفكر بحل هذه المشكلات أو الحد من استمرارها. أفكر بالطرق التي أستطيع بها أن أصل إلى ما أريد دون أن أُلحق الضرر بأحد. كان همي أن أجعل العلاقة أكثر إنسانية ما بين المرضى والمشرفين على المشفى، وأن أنتزع الخصلة السيئة ((السرقة)) من نفوسهم... ولا أنكر، في تلك الليلة، وقفت عاجزاً عن تصوّر أية طريقة يمكن لي أن أعمل بها لتنفيذ ما رغبت فيه... استغلق علي الحل... وأذكر عندما نمت كان آخر ما فكرت به هو المريض رقم (16)... لهذه اللحظة أتساءل: كيف نسيت المريض الوحيد الذي أخبرني عنه الدكتور، رئيس القسم السابق الذي ترك لي وراءه إرثاً ثقيلاً جداً من الفوضى والخراب في القسم وفي نفوس القائمين عليه أيضاً...

... نعم المريض رقم (16)...

في الصباح سحبت إضبارة المريض من بين الأضابير الأخرى، تصفحتها بتركيز... هذا وقد لفت نظري كنيته! إنها كنية لأسرة غنية جداً وذات نفوذ جبار في البلد... أما مرضه فكان كما أقرت نتائج الفحوص والتقارير والتخطيط لدى أمهر الأطباء في الأمراض النفسية والعصبية، هو الانفصام..

بعد أن انتهيت من مطالعة إضبارة المريض رقم (16) طلبت من عثمان السيد، رئيس الممرضين أن يجلس أمامي في غرفتي ليجيبني على بعض الأسئلة والتساؤلات... رأيت خوفاً في عينيه كأنه فأر علق بمصيدة. كان متوتراً يحرك يديه وقدميه بحركات تدل على ما في نفسه من خوف واضطراب، كما أني شاهدت عليه ضيقاً في التنفس. سألته إن كان به شئ من المرض؟

ابتسم وقال: كلا. إنما جو الغرفة حار قليلاً...

طلبت منه أن يفتح النافذة التي وراءه. ابتسم ثانية وقام إلى النافذة وفتحها، ثم عاد وهو مستمر في ابتسامته وقال: اليوم جوّه صيفي تماماً...

تأملته فترة من الزمن فزاد هذا من توتره واضطرابه. سألته: أخبرني ماذا تعرف عن المريض رقم (16)؟

هدأت حركته لحظات. كان فيها كمن يحاول أن يتذكر المريض، ما لبث أن ابتسم وقال: تقصد كافكا!

هززت رأسي بالموافقة وقلت له منبهاً: أعتقد أن اسمه جمال الحلبي...

ابتسم وقال: نعم. ثم أضاف: أعتقد يا دكتور أن البيانات المتعلقة بحالته المرضية مدونة في إضبارته، وليس لدي ما يزيد...

قلت له: لقد اطلعت عليها. ما أريده يا عثمان، وغمزت له، تلك القضايا الشخصية التي لا تدون عادة في التقارير والبيانات...

ظل ينظر إلي رغم توقفي عن الكلام أكثر من خمس دقائق حتى بات جو الصمت ثقيلاً علينا نحن الاثنين. ثم قال: لم أفهم. ماذا تقصد... دكتور؟

وضحت له: أقصد عاداته.. نفسيته.. الخ..

التفت حوله وما لبث أن نظر إلى عيني وقال: دكتور، بالضبط، لا معلومات مفيدة لديّ... لأنني كنت دائماً عدواً للأدب منذ سنوات دراستي الأولى. فأنا لا أذكر أني قرأت ذات يوم كتاباً أدبياً أو غير أدبي باستثناء الكتب التي تعلمت فيها أصول التمريض..

سألته: هل يقرأ.. أقصد هل يطالع في غرفته؟

أجابني: أحياناً يقرأ عندما يجد لديه كتاباً ما، ولكننا عادة لا نسمح بإدخال الكتب لأن القراءة متعبة وهي تقبض نفس القارئ فكيف بمريض! أي تساعد على زيادة في المرض والهيجان في العواطف والغرائز...

ابتسمت له وسألته: من أين جئت بهذه المعلومات يا عثمان، هل تعلمتها من مدرسة التمريض أم هي من بنات أفكارك؟

أجابني: لا هذه ولا تلك يا دكتور. لقد سمعتها من بعض الأطباء يقول: على المريض النفسي أن يكون ذهنه صافياً حتى يستطيع العلاج أن يؤثر فيه ويعيد له توازنه الداخلي المختل...

سألته: وماذا تعرف عنه أيضاً؟

أجابني: بصراحة يا دكتور لقد أخبرتك بكل ما أعرفه عن ((كافكا))... أقصد جمال الحلبي.

قلت له: لا بأس.. هيا نزره في غرفته..

قام معي عثمان السيد وهو لا يصدق ما سمعه مني.

سبقني رئيس المرضين في الخروج وأشار بيده إلى اليمين وهو يقول: من هنا يا دكتور! وقفت أنظر إلى حيث أشار. قلت في نفسي، إلى أين يريد أن يقودني؟ إنه يشير إلى اليمين... واليمين هنا يعني الخروج من مبنى المشفى إلى الباحة المحيطة بها. وطريق الباحة لا يؤدي إلى غرف وقاعات المرضى..

ابتسم رئيس المرضين وهو ما يزال مشيراً بيده إلى جهة اليمين. ما لبث أن قال: دكتور. نحن ذاهبان لزيارة ((جمال الحلبي)) وليس لأي مريض آخر يمكن لإدارة المشفى أن تحشره مع عشرة مرضى في غرفة واحدة..

ظلت جملته غامضة علي وظل الاتجاه الذي أشار إليه غير مقنع لي. ولكني طاوعته وسرت وأنا أقول لنفسي. أنا جديد على المشفى، أما هذا فله عمر مديد قضاه وما يزال هنا.

وما أن خرجنا من الباب إلى باحة المشفى حتى تقدمني بخطوة إلى الأمام كأنه بذلك جعل من نفسه دليلا لي إلى مكان المريض.

في الطريق الحصباوي وهو يتعرج بين مجموعة من الأشجار العالية الغامقة من شجر السرو والصنوبر والشربين راح عثمان السيد يحدثني عن المريض الذي لم يحدثني عنه رغم طلبي منه ذلك، كأنه يريد أن يقول لي شيئا ما قبل أن نصل إليه...

سألته: أراك تعرف المريض معرفة جيدة. ثم أضفت غامزا، برغم أنك أنكرت معرفتك به منذ قليل!

ابتسم بحرج وقال: لا أحد في المشفى لا يعرف ((كافكا)) أقصد جمال الحلبي... ولكني لم أقدر أنك ستهتم به كل هذا الاهتمام. لذا تطوعت لأقدم لك ما أعرفه عنه... هززت له رأسي وأنا أنتظر منه أن يتابع حديثه ونحن نسلك الممرات بين الأشجار إلى المريض.

قال رئيس الممرضين: المريض الذي ستزوره له وضع خاص. ليس كباقي المرضى.. له بناؤه الخاص وممرضة خاصة. نحن مخولون من قبل أهله، وأنت تعرف أنه من عائلة ((الحلبي)) الثرية الشهيرة.. مخولون أن نقدم له كل شيء... نعم كل شيء، فهم يدفعون الأموال بانتظام وبسخاء، أقصد أهله. إنهم أغنياء. لا بل ذوو ثراء فاحش. قد لا تصدق يا دكتور أنهم دفعوا أكثر من ربع مليون ليرة لبناء المبنى

الخاص بالمريض.. ستلمس ذلك بنفسك يا دكتور.. ستلمس أنك لست أمام مريض عادي. لأن الأوضاع المرفهة التي يحياها تغري الكثيرين من أمثالي بالجنون.. وانفجر عثمان السيد بضحكة قوية غير لبقة أبداً. نظرت إليه فاعتذر مني قائلاً: آسف يا دكتور. ثم تابع حديثه عن المريض: إنهم ينفقون بسخاء عليه وحجتهم في ذلك، أن فرداً من آل ((الحلبي)) لا يمكن إلاّ أن يعامل باحترام ويقدّر بتقدير عال حتى لو كان بلا عقل. لأن الإساءة إليه تعني الإساءة إلى الأسرة كلها.. لقد طلب المريض بناء على رغبته أن ينقل إلى مشفى الأمراض النفسية. بعد أن حاولت أسرته أن تبني له ما بنته هنا، في إحدى مزارعهم الكثيرة، وأن يتابع المريض علاجه وهو بين أهله.. ولكنه، هكذا قال عبد الجبار، شقيقه الأكبر، رفض ذلك. قال سأذهب إلى المشفى. هناك سأرتاح وأريح.. وهكذا بنوا له داخل المشفى مشفى خاص به.. وطلبوا من المشرفين من أطباء وممرضين وممرضات الاهتمام به.. وكل شيء بحسابه كما يقول المثل. لهذا عينوا له ممرضة وخادماً خاصين...

سكت عثمان السيد، رئيس المرضين ونحن نقترب من مبنى يقع في زاوية المشفى اليسرى، مبنى صغير أشبه بفيلا ريفية. تابع: لقد اقترينا. ثم تابع وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى: هل تعرف يا دكتور، أن الخادم والممرضة اللذين يقومان على خدمته أصبحا من أصحاب الثروات؟

نظرت إليه غير مصدق. تابع: أعرف، قد لا تصدق، قد تقول، الحسد هو الذي دفعني إلى حديث كهذا ولكنك ستلمس ذلك بنفسك.

سكت فترة ثم تابع: دكتور. برغم كل معاملتي اللينة له فهو لا يحبني، لا أعرف لماذا؟ أرجو أن توصي بي لديه.. طبعاً ليس اليوم،

إنما في الأيام القادمة.. أنا.. وراح رئيس الممرضين يحدثني عن أحواله المالية الصعبة والوقوف على خدمة المريض رقم (16) كفيل بإنقاذه من الوضع المعيشي الصعب الذي يحياه.. لأنه، أي المريض، يرمي بالنقود من النافذة، لا يبخل على أحد إن ارتاح إليه..

توقف عثمان السيد عند هذا في حديثه عندما وصلنا إلى المبنى الصغير فطالعتنا ممرضة شابة ذات نظرة حذرة. قال رئيس الممرضين يقدمني إليها: إنه الدكتور، رئيس القسم الجديد. لقد جاء ليتعرف إلى..

رحبت بنا الممرضة قائلة: أهلاً وسهلاً دكتور.. تفضل من هنا.

لا أستطيع القول أني كنت إزاء مريض عادي..

ابتسم لي بسخرية وهو يحوّل عينه اليسرى عني، بينما يده اليمنى كانت مدسوسة تحت الأريكة كأنه يرتب سراً... حاولت أن أتجاهل ما كان يقوم به..

وقبل أن أبادره بالتحية قال: وأنت أيضاً ماذا تريد؟ ألا تخجلون من أنفسكم عندما ترتضوا أن تصبحوا عيوناً على أمثالي. بالأمس كان ذاك الأحمق! واليوم، ها أنت قبل أن تدخل مكتبك في المشفى تهرع إلي لتعرف ماذا اعمل؟ اطمئن، أنا قررت أن لا افعل شيئاً، أن أجلس وأتثاءب، ثم أغفو لأنام.. قل لي بصدق، كم دفعوا لك؟ أعرف ذلك الثعلب الماكر، فهو من أجل أن يدمرني يمكن له أن يدفع نصف الأموال التي بحوزته.. كيف صحته، هل ما تزال رديئة.. إنه أخي الأكبر. ياللعار.

وأخذ المريض رأسه بين راحتيه.

في هذه اللحظة انتهزت الفرصة لأنتقل بأنظاري إلى جو

الصالة التي دخلناها. فأصبت بالخجل... لا يمكن لأهل مهما كانوا أغنياء أن يبنوا لمريض هذه التحفة الفريدة. قد لا تصدقون أن الجدران كانت من المرمر والكراسي المذهبة مزينة بالحرائر والديباج. أما الأرضية فكانت تلمع بأضواء خافتة. لقد رأيت وجهي منعكسا عليها... بينما كان السقف نائسا بضوء من ضياء الشمس...

وفجأة، أتاني صوت «جمال الحلبي» صارخاً فانتشلني من ذهولي: كم دفعوا لك؟ نظرت إليه بإشفاق. قلت له: هل تتكرم أن تخبرني عن اسمك من أجل أن نتجاذب أطراف الحديث!

قال سائلاً: ماذا؟ نتجاذب أطراف الحديث.. ثم تابع منرفزاً: أتريد أن تسحب مني كلاماً؟ لن أتكلم. سأخرس في حضرتك. سأخيط فمي. لن تستطيع أن تحصل مني على كلمة واحدة... حتى لو جلبت كرياجاً وجلدتني به. لن أقر ولن أعترف... وافعل ما يحلو لك. وأدار لي ظهره باحتجاج.

قلت له: خسارة. لقد قطعت علي الحديث قبل أن تسمح لي بكلمة..

ظل يدير ظهره لي.. قلت: لن أقسم لك بأنني لم أزر أحداً من أفراد أسرتك. حتى أنني لا أعرف أن لديك أسرة، أو يتيماً ربيت في منزل أحد أقربائك.. قاطعني: لست يتيماً ولست فقيراً... ولكنك لن تحصل مني على قرش واحد. أعرف كثيرين من الجبناء والمتملقين يحاولون إرضائي من أجل أن أمدهم بالمال. يظنونني مجنوناً أرمي نقودي من النافذة.. وقطع حديثه وهو يلتفت إلي وتابع ساخراً: إن كانوا يعتقدون بهذا فلماذا لا يدعونني وشأني. ليذهبوا يا أخي - أرسلهم أنت. ألست الطبيب الجديد هنا؟ إذن أطلب منهم أن يذهبوا

إلى أسفل نافذتي منتظرين مني أن ألقي نقودي إليهم؟.

هززت رأسي موافقاً وقلت: ما قلته صحيح.. ثم أضفت: ولكن اعلم أنني لست من الذين ينتظرون نقوداً من السماء أو منك... فأنا هنا من أجل التعرف بعد أن انتهيت من جولتي في أقسام المشفى. ولم يبق إلا القسم الذي أنت فيه...

حدجني بنظرة خطرة وهو يقول: ماذا؟ جولة اطلاعية؟ ثم تابع ساخراً: إذن قل لي. ماذا اكتشفت؟ مجنوناً آخر أم...

قلت له: لم أجد سوى شاب حساس لا يثق بالآخرين.. حتى دون أن يعرفهم معرفة ضئيلة... أجابني: أعرفك جيداً حتى قبل أن أراك.. كلكم سواسية. أتعتقد بأنك ذكي؟ وقال برأي قاطع: كلا.. أنت تحاول أن تلعب دور الذكي – أما نحن فمجرد مرضى. حمقى. يمكن لك ولأمثالك أن يقضوا معنا أوقاتاً مسلية ضاحكة.. أليس كذلك؟

ابتسمت له ولم أجب. التزمت الصمت.

تابع نظره إلي بريبة. ما لبث أن قال سائلاً: قل لي، ماذا تريد الآن؟ نقوداً؟ سأعطيك. أي شيء تطلبه مني ولكن دعني بسلام.. اعتبر هذا المبنى هو خارج مشفاك. امحُني من ذهنك تماماً. اعتبرني لم أوجد في هذه الدنيا.. ألغ وجودي من عالمك..

قلت له: لا بأس إن كنت ترغب حقاً في هذا..

قمت متوجهاً إلى الباب.. شعرت بحركة ورائي فانتابني شعور بالخوف. ماذا لو تناول أي شيء وضربني به على رأسي؟ سيقتلني بلا شك. لأنه، على ما يبدو مجنون خطر.. وقبل أن أسارع في الخروج أمسك ساعدي وثبتني في مكاني كأنه يقول لي: لا تذهب.. التفت

إليه بعد أن توقفت. قلت له بلهجة طيبة: دعني. ألم تقل لي أن أدعك.. أجابني وهو يطرق وجهه إلى الأرض: أنا آسف. لقد ارتكبت في حقك خطأ، لم أتوقع منك هذا النبل والصبر. أشهد بأنك طبيب طيب القلب. سامحني أرجوك يا دكتور.. سامحني..

قلت له: أنت لم تفعل شيئاً لا يرضيني.. كل ما هنالك أنني جئتك على ما يبدو في وقت غير مناسب.

انهار على كرسي بجانبه وقال: هذا بالضبط ما كنت أريد أن أعبر لك عنه، نعم. لقد جئت في وقت غير مناسب بالنسبة إليّ. فأنا في مثل هذا الوقت أطالع.. أقرأ.. وقطع كلامه. ثم أخذ لون وجهه بالتغير فقد اصفرت وجنتاه خوفاً كأنه ارتكب خطأ. كان عليه، على ما يبدو أن لا يخبرني بذلك.. لأن القراءة ممنوعة عليه. فابتسمت له وتابعت: أتمم ما كنت تريد أن تقوله..

ظل ملتزماً الصمت وهو ينظر إلي بطرف عينه اليسرى. كان حذراً. خائفاً من أن أنقض على الكتاب القابع تحت الأريكة.

قلت له: أخرج الكتاب وتابع قراءتك فيه إن أردت.

وخرجت.

في الصباح سمعت طرقاً على باب غرفتي. كانت الساعة تشير إلى الثامنة. هتفت: من؟ تفضل...

فتح الباب عن وجه الممرضة الخاصة بالمريض «جمال الحلبي». كانت علامات الخجل واضحة على محياها، فابتسمت لها عندما وجدت تردداً في دخولها وقلت: تفضلي يا آنسة.. تفضلي.. دخلت على استحياء وجلست أمامي، على كرسي خيزراني وهي

مطرقة. سألتها ضاحكاً: أعتقد بأنك جئت بشكوى ما ضد مريضك «كافكا»..

رفعت رأسها بحركة دلت على المفاجأة.. نظرت إلى وجهي، ثم قالت: أوغاد. إنهم لا يتركون فرصة إلا ويحاولون الإساءة إليه!

قلت: أنا آسف إن كان ما قلته قد أساء إلى المريض..

قالت: ليس الخطأ خطأك يا دكتور... إنما الآخرون... ثم قاطعت نفسها وقالت: المهم. لقد جئتك أولاً لأعتذر لك نيابة عن «جمال الحلبي» عن سلوكه غير السوي الذي قابلك به. وثانياً: لقد طلب مني أن أبلغك، إن كان بإمكانك زيارته اليوم؟ كان بوده أن يقوم هو بزيارتك، ولكن أوامر المشفى تقول: ممنوع عليه الخروج من الفيلا والاختلاط بالمرضى الآخرين..

سألتها باستغراب: ممنوع من الخروج! لماذا؟

أجابت: لسبب يطول شرحه.. واختصاره، هكذا رغبة أسرته، ثم أضافت: والآن هل أخبره عن مجيئك إليه؟

أجبتها: نعم..

ثم طلبت منها أن تبقى قليلاً عندما رأيت منها محاولة القيام. سألتها: أرجو أن تحدثيني قليلاً عن حياته... لأنني لا أعرف شيئاً عنها... وفي البارحة لم أستطع أن أحصل منه على شيء بهذا الخصوص..

سألتني بدهشة: لا تعرف عنه شيئاً!

قلت لها: حقاً لا أعرف شيئاً.. كل الذي أعرفه، هو ما قدمه لي الطبيب السابق، رئيس القسم وما قدمه لا يُذكر أبداً. سوى أن

المريض مصاب بانفصام الشخصية، فهو يعتقد نفسه «كافكا».

هزت الممرضة رأسها وقالت: إنه وغد كالآخرين.. وأرجو المعذرة يا دكتور. ثم قالت: أنا في عجلة من أمري.. لأنني إن تأخرت قليلاً سيظن أن أسرته قد... وقطعت كلامها كأنها تذكرت شيئاً يجب أن لا يعرفه أحد. فتابعت: لذا أخاف أن يصاب بنوع من الكآبة تؤدي به إلى الانتحار... لهذا لا أستطيع الجلوس طويلاً...

قلت لها: لا بأس. ولكن أرجو أن تقدمي لي رؤوس أقلام على الأقل لكي أعرف. عندما ألتقي به كيف السبيل إليه والدخول في نفسه ليطمئن إلي ويرتاح..

قالت الممرضة: لا بأس. ولكن لا أعرف كيف أبدأ... فأنا أعرفه منذ سنوات. كنا قد أحببنا... ولكن ليس هذا المهم في حديثي الذي أريد أن أسرده عليك... كما رأيت وأعتقد بأنك سمعت من الآخرين، إنه سليل أسرة غنية، لها نفوذ وسطوة، ولا أبالغ إن قلت لك، إن أسرته تستطيع أن تحرك البلد بمن فيها بإصبع واحد من أصابعها... فأسرته هي التي تنصب الوزراء ورؤساء البلديات وقادة الدرك والشرطة ولا أغالي أبداً، إن قلت: لدى الأسرة قوة تستطيع أن تمسح من تريد عن الأرض، أو أن ترفع إلى القمة من تريد بكلمة واحدة.. تابعت الممرضة: هذا باختصار عن أسرته، أما عنه هو فقد سافر بناء على رغبة والده يوم كان حياً إلى فرنسا بغية إبعاده عن الفتاة التي يحبها بعد أن رفضوا زواجه منها... وفي فرنسا انتسب إلى إحدى الجامعات وحاول أن يدرس ليحضر رسالة دكتوراه ولكن الظروف التي أحاطت به دفعته إلى اتجاهات أغضبت والده عندما علم بذلك... كانت الأخبار تصله عن طريق بعض الرجال الذين يعملون في سفارة البلد، فأرعبت الأخبار والده... فسافر إلى فرنسا

وحاول ثنيه عن ذلك فلم يرضخ ولده له، إنما ازداد إصراراً على متابعة ما كان قد بدأه..

وفي السنة التي توفي فيها والده آلت الأمور إلى أخيه الأكبر، فطلب منه العودة إلى البلد، فرفض... مما دفع بالأخ الأكبر أن يجلبه بالقوة.. تابعت الممرضة: وهنا بدأت مأساة المريض.. انزوى في البيت لا يخرج، هزل ومرض، ثم أخذت تتراءى له رؤى غير واقعية، وأصيب بمرض الكآبة... وبعد أن عجز الأطباء من علاجه، طلب المريض بنفسه أن يوضع في المشفى محاولاً بذلك الابتعاد عن جو البيت... وعن مشاهدة أفراد أسرته. ولكن أسرته رفضت... وذات يوم سمع من ابن أخيه الأكبر يقول سائلاً: «هل حقاً أنت مجنون يا عماه؟». فجن جنون المريض وهدد بالانتحار إن لم ينقلوه إلى المشفى... رضخ أهله أمام التهديد وقبلوا أن ينتقل إلى المشفى بعد أن بنوا له داخل حديقة المشفى تلك الفيلا الصغيرة التي يقيم فيها الآن منذ ثلاث سنوات... ثم أضافت: والنقطة الأخيرة التي أريد أن أحدثك عنها، هي كيف لقبوه بـــ«كافكا» في المشفى؟ كما رأيت يا دكتور، عندما دخلت عليه البارحة حاول إخفاء كتاب كان يقرؤه. فهو يحب المطالعة جداً، يسمع الموسيقى.. كثيراً ما حدثني عن أحلام لا نظير لها لو تحققت، فهو رقيق، حساس، إلى جانب كونه عصبي المزاج... أحياناً لا ينام، يظل ساهراً إلى الصباح، وفي أحيان أخرى يجلس إلى طاولته يكتب أموراً لا أفهم منها شيئاً. وكلما سألته عن ماذا يكتب؟ كان يجيبني: أكتب عن رجل وامرأة أحب بعضهما بعضاً إلى حد الجنون ثم يصمت وما يلبث أن يتابع وهو يضحك: «وأكتب أيضاً عن الغول الذي يهددهما وأكتب عن الناس الفقراء والشرطة الكريهة، وعن أمثال أخي الكبير مصاص الدماء، والجواسيس الأنذال أكتب قصصاً..» وكان يحدثني

عن «كافكا» قائلاً: «لا أدري لماذا أرى نفسي فيه كلما أقرأ له.. أجد أنه قد كتب عن جانب من جوانب حياتي...» وذات يوم، تابعت المرضة، وكان في لحظة صفاء وهو يجالس الدكتور السابق أخبره بشعوره هذا... ومنذ ذلك اليوم أطلقوا عليه لقب «كافكا»، ولكنهم لا يجرؤون النطق به أمامه... فهم يعرفون، إن غضب من أحدهم، يستطيع أن يمحقه ويقضي عليه، لهذا فهم يتملقونه لنفوذ أسرته وغناها.. وأضافت موضحة: لقد اشترى الطبيب السابق عيادته وجهزها بكل ملتزماتها من وراء ما كان يأخذه من أسرة المريض. كان خسيساً، نذلاً..

وأنهت المرضة حديثها قائلة: هذا باختصار كل ما أستطيع أن أخبرك عنه يا دكتور.. قلت لها: لا بأس. أشكرك لمساعدتي، يجب أن نسعى من أجل أن نخرجه مما أغرق نفسه فيه، وأن نعمل على منحه الطمأنينة والعودة إلى حياته الطبيعية العادية.. ثم قمت أرافقها إلى باب الغرفة قائلاً: أخبريه عن موعد زيارتي له.. شكرتني المرضة الخاصة وخرجت.

استقبلني بترحاب مبالغ فيه، ثم أشار إلى كرسي مميز له شكل طائر البطريق وقال لي: تفضل يا دكتور، استرح، إنه أفضل مكان يمكن أن أقدمه لك.. شكرته وجلست.

حاولت قدر الإمكان أن أدعه يتكلم هو. وهذا ما كان. لقد بدا لي إنساناً أقرب إلى العاقل منه إلى مريض بالوهم، وأستطيع أن أقول، لولا بعض تصرفات منه، مثل اندفاعه في الحديث، ثم التوقف والإعلان عن أنه يائس، يفضل الموت على هذه الحياة الظالمة. غير العادلة.. والتي هي في نهاية المطاف فارغة.. ثم فجأة، كان يتجه باتجاه آخر للحديث مختلفاً تماماً عن الذي سبق، بحيث لا يجد

المستمع أية صلة ما بين الحديثين...

عندما أخبرته، أن أحداً من أهله لم يقابلني بعد، بناء على سؤاله، لم يصدق. نظر إلي وهو يفكر فيما بينه وبين نفسه ويخمن... ولكنه ما لبث أن أطرق وقال بصوت حزين: ولكنهم سيأتون. كلا.. هم لا يأتون، وتابع بسخرية، هم من علية القوم، ثم بتعجب هازئ هم يأتون لمقابلة طبيب! مستحيل.. مستحيل..

وندت عنه حركة غامضة. ثم تابع: بل سيرسلون لك إحدى سياراتهم الفخمة ليقلوك بها إلى القصر. هناك سيكرمونك. سيسألونك أسئلة في ظاهرها البراءة والتعاطف، حول أوضاعك الحياتية والمهنية.. في أي عام تخرجت؟ هل لديك سيارة؟ عيادة، مشفى.. إلخ؟ ثم يقولون لك بتعاطف ويكبرون فيك الدور الإنساني الذي تقوم به، إن أنت تعاطفت معهم وشككت بعدالة القدر على أن عائلة مثل عائلتهم لا يمكن أن يوجد فيها مريض بالعقل.. التفت إلي وهو يضحك بغضب: أقصد، مجنون! وتابع حديثه السابق: ولكن... ثم تفتح يديك كأنك ترسم لهم التسليم والاستسلام لقضاء الله وعدله...

وأدار وجهه عني بعد أن كظم انفعالاته. وعاد ينظر عبر النافذة المفتوحة إلى أشجار السرو والشربين التي كانت أشبه بستارة خضراء داكنة للنافذة. ثم تابع: أما إن لم يجدوا فيك تعاطفاً تجاه أسرتهم، ولم تسع إلى تلبية رغباتهم بالطريقة التي يريدون معالجتي بها، فالويل لك يا دكتور.. أعرفهم. إنهم وحوش كاسرة سيطاردونك في المشفى الذي كنت طبيباً فيه.

في أثناء حديثه هذا كانت مشاعر أخرى تنمو في نفسي، وكنت أنظر إلى الموقف بنظرة غير النظرة التي كان مريضي ينظر بها إلى

الأمور، قلت: لا شك أنه عانى كثيراً من أسرته. أو أنه يشعر بشيء من الاضطهاد ليس من أهله فقط، إنما من كل ما يحيط به عندما كان خارج المشفى، لهذا الأمر، أعتقد بأنه يغالي في وحشية أسرته... ولم أصدق الصورة التي رسمها لي عنها، قلت لنفسي ربما أساؤوا إليه كرغبة في الانتقام ليس منه، إنما من الجنون الذي أصاب أحد أفراد أسرتهم، وبذلك تكون نقطة ضعف ظاهرة لبقية الأسر الأخرى التي تتحارب فيما بينها من أجل السيطرة والقوة في البلد... أي بصورة أخرى، هناك ثغرة بادية للعيان في قلعتهم العتيدة الواقفة بشموخ أمام القلاع الأخرى...

كنت قد التزمت الصمت وأنا أفكر بما فكرت به، رغم أن مريضي كان قد أنهى حديثه منذ مدة لا بأس بها. فنظر إلي عندما لم أعلق على ما أخبرني به وقال: أنا أعرف أنك لا تصدق ما قلته لك. ربما تقول لنفسك، إنني واهم، إنني أعتقد بأن ظلماً ما واقع علي. لهذا أتحدث عنهم بتحامل..

ابتسمت له وقلت: أبداً يا صاحبي. كنت أفكر بأمر آخر تماماً..

سألني باستغراب: تفكر بأمر آخر! ما هو؟

قلت له: كنت أفكر بالأسباب التي دفعت أسرتك أن تعاملك المعاملة التي أخبرتني بها.. عندما يمرض الإنسان، أي إنسان، غنياً كان أم فقيراً، عادة يجد لدى أهله والأقرباء حتى الغرباء، يجد التعاطف لديهم.. أما الوضع الذي تعاني منه.. فهو العكس، والسبب برأيي هو الانتقام من المرض وليس منك..

توسعت حدقتا «جمال الحلبي» وقال بلهجة ممطوطة: اعذرني دكتور إن قلت لك، لم أفهم ما قلت..

تابعت كلامي: لا عليك. ثم ابتسمت له: أنت تريد يا صديقي أن تعرف كل شيء دفعة واحدة، ومن ثم تغلق الباب في وجهي، وتقول لنفسك ما به هذا الثرثار يعاود زيارتي، أنا الذي لم أعد أجد لديه شيئاً جديداً.. أليس كذلك..

ابتسم بإحراج وقال: أبداً.. ثم أضاف بحماسة: دكتور، أقول لك الصدق أنت أول طبيب أرتاح له! لا أدري لماذا؟ وابتسم.

قلت له: إذن.. دعنا مما تحدثنا عنه، لأنني لم أكوّن الرأي الذي طرحته عليك بما فيه الكفاية... لأنني، وابتسمت له، لا أعرف موقف أسرتك بعد، فأرجو أن تتابع ما كنت تخبرني عنه، ثم أضفت مازحاً: وها أنا كلي آذان صاغية..

ابتسم باقتضاب وتابع: لا بأس.. لا شك يا دكتور أنهم قد عانوا من مشقة مرضي ولم يهملوني في يوم من الأيام.. والدليل على ذلك الوضع الذي تجدني يه، فأنا أعتقد بأن المعاملة التي أُعامل بها في المشفى، لا يعامل بها إلا أبناء ملوك أو سادة عظام. انظر.. وأدار يده في داخل الفيلا - حتى الأصحاء لا يحلمون بالعيش في المكان الذي أعيش فيه.. وبرغم كل هذا فهم أشبه بالأفاعي ذات الجلود الطرية الناعمة، سيقولون لك: كما رأيت يا دكتور فنحن لم نقصر في واجبنا تجاه مريضنا. سيقولون: لقد بنينا له مشفى خاصاً داخل مشفى عام لجميع المرضى. أقمنا على خدمته ممرضة خاصة به، وخادماً خاصاً، إنهما يكلفاننا مبلغاً ضخماً من المال في السنة... ولكنه شقيقنا، أحد أفراد أسرة الحلبي. لا يمكن لنا أن نتخلى عنه. ماذا سيقول الناس عنهم.. لو هم تخلوا عني. سيقولون: وحوش.. إنهم يعاملونه كفرد غريب، وليس كابن من أبناء أسرة الحلبي..

سكت هنيهة ثم قال: دكتور، عندما تذهب إليهم سيخبرونك

عني أكاذيب لا حصر لها. وذلك من أجل أن لا تسقط هيبة العائلة... أعرف، إن قواي الصحية ليست على ما يرام، ولكن عقلي ليس به خلل... لا. بل. إنه نشط أكثر من عقول جميع أفراد أسرتي. ولكن هم الأقوى.. لقد اختطفوني من شوارع باريس، وضعوني في طائرة خاصة وجلبوني إلى هنا.. لا أقصد المشفى، إنما البلد، وقبل أن أخرج من المطار، أي قبل أن يصل أفراد أسرتي كالت لي شرطة المطار تهماً، وهم جميعهم من أعوان أسرتي لأنهم عينوا بمرسوم من مراسيمهم الخفية.

قالت عني الشرطة في المطار: أنت جاسوس، بلا ضمير، لا وطني. قالوا إنني مجرد خرقة قذرة تحاول أن تلطخ سمعة أسرتك.. وهنا زعق أحد الضباط في وجه الذي اتهمني بالخرقة. فأصابه بالرعب وقال، عفواً سيدي لقد.. ثم عاد وكرر اتهامه لي بصورة أخرى. قال: ما أنت إلا خرقة قذرة تحاول أن تلطخ سمعة وطنك.. نعم يا دكتور. لقد تغيرت كلمة واحدة من الجملتين، ولكنها كافية لكي يعرف المرء، أن اتهاماتهم لي كلها باطلة. إنها أكاذيب، هكذا أرادت أسرتي أن تقول عني. ولكن ليس بلسانها. إنما بلسان الشرطة التي احتجزتني.. قالوا لي، ستحاكم وستعدم، لأننا نرى فيك متهماً بالخيانة العظمى.. تابع «جمال الحلبي»: ولكن برغم هذا الغضب الذي أبدوه تجاهي، في حضرتي، لم يحاول أي واحد منهم أن يرفع يده ليصفعني، أو يدفعني ولو دفعة كيفما اتفق، من أجل أن أشعر بالذنب من أني خائن وجاسوس.. الخ.

ثم سألني «جمال الحلبي»: دكتور. لا شك أنك سمعت بسلوك هؤلاء الرجال في حال إلقائهم القبض على جاسوس أو خائن. فهم يجعلون منه تسلية لتفريغ كل حقدهم وكرههم وعقدهم فيه، ليس

لأنهم يكرهون الجواسيس والخونة. ليس لأنهم يحبون وطنهم، ولديهم الحرية في تقديم الغالي من أجل الوطن، أبدا... إنما لأنهم مكرهون على فعل ما فعلوا..

عاد «جمال الحلبي» إلى سؤاله: ألا ترى معي يا دكتور، تناقضا في سلوكهم تجاهي، وتجاه ما جبلوا عليه من الوحشية والفظاظة وموت كل ما هو إنساني في نفوسهم؟ لقد فكرت، إن كنت كل هذا الذي اتهموني به، فلماذا لم يحاول أي فرد مهما علت رتبته أو دنت أن يمد يده إلي ولو بصفعة مصطنعة؟ ... وبعد تفكير طويل وصلت إلى اقتناع بأنهم مجرد دمى بيد أسرتي، أسرتي التي قالت لهم، أن يتهموني كل هذه التهم، على شرط أن لا تخرج عن نطاق غرفة التحقيق التي حققوا فيها معي، وعن العناصر الأربعة الذين أشرفوا على التحقيق معي، قبل وصول شقيقي الكبير، وتسلمي منهم، وحملي إلى القصر، مع خدمين أشرفا على قيادتي وجعلي هادئاً رصيناً...

تابع «جمال الحلبي» بصوت خافت حزين: وبرغم كل هذا سيقدمون لك من الأكاذيب ما يكفي لإقناع أي طبيب بأني مجنون...

سكت مرة ثانية وهو ينظر إلي وفي عينيه ضراعة، أنْ لا أصدقهم، ثم قام إلى طاولة كانت في زاوية الصالة من الشمال، سحب من بين الأوراق المكدسة عليها مظروفاً أصفر اللون، وعاد إلى مجلسه. شد المظروف إلى صدره. ما لبث أن ناولني إياه وقال: كل الذي أطلبه منهم، أن يدعونني في حال سبيلي، فأنا لا أطلب منهم شيئاً. أموالاً لا أريد، حتى اسم العائلة، إن أرادوا أن أسقطه عني سأفعل، فقط أن يدعوني بحالي. أن أعيش الحياة التي أريد، وأن أختار المرأة التي أحب...

والتفت ونظر إلى الممرضة التي كانت قابعة إلى جواره. ثم

تابع: هذا كل ما أريد يا دكتور. ثم عاد وقال: لقد حاولت دائماً أن أعبر عما أحبه تجاه الذين أحبهم والذين أكرههم، تجاه الحياة ورأيي فيها.

ومد المظروف إلي وتابع: إنها مجرد كتابات. اقرأها.. لترى بنفسك أنني لست مجنوناً كما يدعون.. ثم أضاف: أنا لا أنكر بأني عصبي المزاج، أتخيل كطفل كثيراً من الأشياء.. ولكن ماذا أفعل، إنها طبيعتي التي ولدت عليها. إنه قدري ويجب أن أتحمله.. ناولني المظروف بحركة بطيئة كأنه متردد في ذلك.

تناولت المظروف وأنا أعده، أن أعيده له فور انتهائي من قراءة ما يحوي من الأوراق، ثم أضفت إليه: وما أن تسنح لي الفرصة المناسبة حتى تجلس نحن الاثنين إلى بعض لنناقش ما قرأته...

ابتسم لي وقال: أشكرك سلفاً يا دكتور. سيكون رأيك محترماً بالنسبة إليّ. لأن ما كتبته، فيه شيء من روح «كافكا».. هذا الكاتب العظيم الذي هو من أحب الكتاب لديّ. وكما تعرف أن هذه الروح غير محبوبة لدى قرائنا..

ثم ابتسم وقال راجياً: أتمنى أن لا تكون أنت واحداً منهم..

ابتسمت له وقلت: أتمنى ذلك.

... هكذا تعرفت على «كافكا» الكاتب في صورة المريض مرة ثانية.

جلست في المساء إلى الأوراق التي أعطانيها «جمال الحلبي» وبدأت في قراءتها صفحة وراء صفحة...

15 / 7 / ...

وصلت اليوم إلى باريس.

22 / 7 / ...

مضى أسبوع على وصولي إلى باريس، وخلاله لم أخرج من الفندق، حصرت نفسي ما بين جدران غرفتي وأروقة الفندق التي كان عليّ أن أتنقل عبرها ما بين المطعم وصالة الجلوس لأتفرج على التلفزيون دون أن أفقه شيئاً من برامجه...

خلال هذا الأسبوع حاولت أن أرتب ذاتي الخربة. كنست التراب وأزحت الحجارة من مكانها وكومتها في زوايا نفسي لأجد فسحة كافية لتحركي وأنا أتفكّر في الذي أقدم عليه. كما أني رفعت

كل اللوحات التي كانت قد تساقطت عن جدران نفسي لأعلقها مرة ثانية في أماكنها السابقة. قلت، ربما تفيدني هذه اللوحات في استذكار أشياء أو بعضها على الأقل في حالات البحث والتدقيق في ماضي حياتي.

قلت: أعتقد يمكنني، بعد أن أنجزت ما أردت إنجازه، أن أخرج إلى باريس – المدينة.

23 / 7 / ...

كما توقعت. كان أبي قد أودع لي مائة ألف فرنك فرنسي، كما وعدني قبل مجيئي إلى باريس. وقال: اذهب إليها، ادرس في إحدى جامعاتها، أريد لأحد من أولادي أن يحصل على شهادة عالية... دكتوراه. لن أبخل عليك بالمال إن فعلت ذلك، قال أيضا: ما إن تصل حتى تجد المبلغ باسمك في المصرف. وإن احتجت إلى أكثر، فما عليك سوى أن ترسل إلي رسالة حتى تجد في اليوم الثاني ما تطلبه في المصرف.

قلت: والآن علي أن أخرج من الفندق، لن أشعر فيه بحرية كافية، سأظل تحت عيون الخدم والموظفين والزبائن، قلت: علي أن أستأجر بيتا لنفسي لأرتب حياتي فيه دون أن يتدخل في تفاصيلها أحد.

التفت حولي بعد أن خرجت من المصرف. وقع نظري على صفحة مياه النهر. سألت نفسي: هل هو السين يا ترى؟ فأنا لم أزر باريس من قبل، وما أعرفه عن جغرافيتها ضئيل جدا... اقتربت من

الكورنيش. وقفت أمام سوره الحديدي المطل على النهر. كانت مياهه عكرة رمادية. تحمل بين مويجاتها الهادئة كثيراً من بقايا الأعشاب وأوراق الأشجار وعيدان مكسرة. لا أدري كم من الزمن وقفت، قلت: علي أن أعود إلى الفندق.

26 / 7 / ...

استأجرت في شارع «سان جرمان» شقة مؤلفة من غرفة وصالة. لقد استعنت ببعض المقيمين فيها من أبناء الوطن، كنت أعتقد بأني لن أحتاج إلى أي شخص في باريس، كنت قد قررت اعتزال الناس. لا أريد مشاهدة أحد من أبناء الوطن في الغربة. كنت أريد أن أعيش لنفسي ومع نفسي...

ضحك أصدقائي الذين حملوني ببعض عناوين أصدقائهم في باريس وقالوا: لا بأس... ولكن لا بد لك أن تقيم علاقات ما مع بعضهم أول ما تصل... هناك مشاكل لا تحل يا صاحبي؟ وهذا ما كان بالفعل... تعاملت بحذر أول الأمر مع الأشخاص الذين اتصلت بهم. حاولت أن لا أحفظ أسماءهم وأن لا أرفع الكلفة ما بيني وبينهم... ولكي أصرفهم من حياتي، بعد أن أنجزت ما كنت بحاجة إليه، مددت لهم يدي ببعض المال، أجرة لتعبهم، كنت أريد بذلك أن ينفضوا عني غاضبين... وهذا ما حدث لهم. بعد أن سخر بعضهم مني ومضى في طريقه، وبعضهم الآخر بصق على الأرض وآخرون قالوا ساخرين: لو عرفنا أن ثمن مساعدتنا لك سيكون هذا المال القليل لما ساعدناك يا ابن الـــ...

لم أزعل منهم أو أغضب، إنما ابتسمت في قفاهم الذي ولوني

إياه غاضبين...

29 / 7 / ...

في هذا اليوم تفكّرتُ أولَ مرة في حياتي الماضية مذ حطت رجلي على أرض باريس. عندما خرجت من الوطن كنت قد قررت أن أقطع كل ما يربطني بمكان ولادتي وسنوات حياتي الماضية، قررت هذا الأمر، وحاولت أن أنفذّه..ولكني، ها أنا بعد أقل من أسبوعين لي في فرنسا أذهب بفكري إلى ماضٍ ليس ببعيد عني وأقلبه بين يدي.

ولكي لا أغرق من جديد في الهم والغم بسبب تفكيري في حياتي الماضية قمت من فوري وطفتُ مشياً شوارع باريس لا على التعيين. أترك ورائي شوارعَ حديثة. لأدخل في شوارع عتيقة. أنظر إلى وجوه الناس الذين أمر بهم، أمشي في الحدائق الكبيرة والصغيرة، أجلس في المقاهي... أرتاد الخمارات كبيرها وصغيرها. لا أشرب فيها سوى النبيذ وآكل الجبن الأبيض، أشتري مجلات شتى، أقلب صفحاتها، أحاول أن أقرأ فيها، ولكن حصيلتي من دروس اللغة في المعهد ما يزال قليلاً... فألقي بالمجلة من يدي، أقوم إلى مقص لأقص منها الصور العارية وأثبتها على الحيطان... استنكرت ذلك صاحبة البيت عندما رأت الصور المعلقة، طلبت مني أن أزيلها. ثم حذرتني من القيام بهذه الفعلة مرة ثانية. هددتني: لو فعلت ذلك لطلبت البوليس ليلقي بحقائبك إلى الشارع. ثم هزت إصبعها أمام وجهي وقالت: سأقاضيك في المرة القادمة... ثم بررت بكلام لم أفهم منه كثيراً..

لم أعلق على كلامها سوى بكلمة عربية: عاهرة... قلتها في وجهها.

صرخت في وجهي بدورها: تكلم بالفرنسية يا قرد.

5 / 8 / ...

التقيت ليلة أمس عن طريق المصادفة بشاب جزائري، وبعد أن عرفّني على نفسه جرى بيننا حوار استشف من حديثي معه، أني لا أرغب في التعرف ومخالطة الشبان العرب، سألني عن السبب بعد أن علّق: إن كنت جئت إلى باريس هرباً من وضع سياسي أو حزبي؟ أجبته: كلا. ثم تابعت ساخراً: لأن مخالطة العرب يؤخرني في تعلم اللغة الفرنسية، ثم تابعت ممازحاً: أنت تعرف أن المعهد وحده لا يفيد في تعلم اللغة. ضحك الشاب وقال: إن كنت ترغب في تعلم اللغة سريعاً، عليك برفقة امرأة فرنسية. فهي الوحيدة القادرة على تعليمك بالسرعة التي تريدها.

ومضى الشاب عني ضاحكاً مودعاً: أرجو أن لا ألقاك؟ إلا بعد أن تكون قد تعلمت الفرنسية جيداً.

ضحكت له.

فكرت ملياً بما قاله الشاب الجزائري لي، فوجدته على صواب، ومن جهة أخرى، شعرت في الأيام الأخيرة بحاجة شديدة إلى المرأة... لا أقصد الحاجة الجنسية. كلا... إنما الحاجة لرفقة يومية... فالجنس حصلت عليه لدى بنات الهوى. وقد سعدت بهذه العلاقة، من جهة أختار التي أريد، ومن جهة أخرى لكي لا أربط نفسي بوعد أو قول لواحدة منهن... كنت أريد أن أقيم علاقة مع أكبر عدد ممكن من النساء. أمارس معهن الهوى على طريقتي... وعندما حاولت بعضهن

النفور من ذلك أغريتها بالمال. فكانت تنبهر بمئات الفرنكات التي أسقطها بين يديها وفي حضنها وهي تشهق وترفع إليّ وجهاً طفولياً مليئاً بالدهشة وهي تصرخ بي: هل أنت أمير؟

كنت أضحك وأقول: كلا..

ولكنها، كنت ألاحظ عليها، لا تصدق.. وكنّ يجرين خلفي يسألنني عن مواعيدنا القادمة فكنت أجيب: سأبحث عنكن بنفسي..

وأتركهن وأمضي بلا عودة إلى أي واحدة منهن، لأبحث عن أخريات. كنت أقول لنفسي: لن أقيم علاقة دائمة مع فتاة أعاشرها كحبيبة إلا بعد أن أكون قد شبعت من نساء باريس وأُتخمت بهن...

9 / 8 / ...

منذ اليوم فكرت بجدية في البحث عن فتاة... من جهة لتساعدني على تعلم اللغة، ومن جهة أخرى لتخفف عني الوحدة التي بدأت أعاني منها، كنت قد فكرت بأن أقيم علاقة مع صاحبة البيت، كبداية فقط... ولكني للأسف اكتشفت أنها امرأة شرسة تبحث عن المشاكل فإن لم تجدها فتخترعها... لذا بدأت في الأيام الأخيرة أتحاشى اللقاء بها. ثم فكرت بضرورة ترك الشقة والبحث عن أخرى أكثر هدوءاً واستقلالية... وفي ليلة أمس أخبرتها بذلك. قلت، سأضطر، خلال عشرة أيام القادمة، إلى ترك الشقة فيمكنك الإعلان عنها بالإيجار بعد هذه المدة.

في الصباح قالت لي: إلى الجحيم اذهب. ولكنها في المساء، جاءتني وحدثتني بلهجة مختلفة تماماً... كانت هادئة، حاولت أن

تحاورني بشيء من الاحترام. ثم سألتني إن كنت أود ترك الشقة. أجبتها: نعم، سألتني عن السبب. هل لسلوكها معي، أم أني أفضل شقة أرخص؟ أخبرتها كذباً بأنني أريد شقة أفضل من هذه. استغربت من كلامي وقالت: أحقاً تريد شقة أفضل؟ ثم أضافت: لا بأس يمكنني أن أجهز لك هذه الشقة بشكل أحسن لو دفعت لي ثمن ما ترغب من تحسينات.

قلت لها: آسف، ليس لدي المال الآن لأدفعه لك... قالت: يمكنني أن أنتظر... سألت نفسي بعد ذهابها عن أسباب هذا التغيير الذي طرأ عليها؟ فلم أصل إلى جواب مقنع. ولكني قررت ترك الشقة. وأيضاً ترك فكرة إقامة علاقة معها.. قلت لنفسي، هذه لن تعلمني اللغة إنما أشياء أخرى!

20 / 8 / ... صباحاً - باريس

أحد عشر يوماً ولم أمد يدي إلى القلم لأسجل يومياتي هذه، إلا أن الحلم الذي رأيته في المنام الليلة الفائتة دفعني دفعاً إلى الإمساك بالقلم والكتابة. كان حلماً غرائبياً. عندما استيقظت عرفت أن ما دفعته من حياتي الماضية. قبل وصولي إلى باريس، إلى الخلف، إلى وراء دائرة النسيان، عاد واحتل ثانية شاشة نومي. فها أنا في المنام أرى نفسي أسير في شوارع مدينتي، ألاقي فيها حبيبتي...ن/ أدخل إلى البيت وأخرج منه كغريب. أحاول أن أبتعد عن أسرتي. أرى أبي يصرخ بي: يا بن الكلب ماذا تريد؟ الشبان من أمثالك يحلمون أن يحصلوا على جزء يسير مما تحصل عليه، أن يملكوا قشة مما تملكه... أي ظلم يلحقه بي القدر عندما يجعل منك أداة لتعذيبي! يا

بني، أنت الوحيد الذي أود أن أرفع رأسي به أمام الناس، بقية أخوتك ما هم ببشر، إنهم أشبه بالوحوش، لم تهذبهم المليارات التي يملكونها. لا يعرفون سوى الجريمة الوسخة في تعاطفهم مع الناس، إنهم يدفعون بالأسرة إلى حافة العزلة وكره الخلق لها، ماذا بك يا بني؟

أرى والدي في المنام يبكي. يقول: ارحمني..

أرى أخوتي، وخاصة الكبير منهم. يهدد والدي ويتوعده: أنت تجعل منه شبه نبتة، لن تصمد أمام أي ريح. دعه ينمو كما نمونا نحن.

أراهم يقولون: لم تعد الحياة تقبل المهادنات وأشباه الرجال. الحياة باتت ملك الأقوى والأشد نفوذاً.

يقول أحدهم: أما السلام الذي تتحدث عنه فهو الموت.

أرى أبي يبكي ويقول.. إنه الوحيد الذي أريد. أما أنتم فخذوا كل أموالي وثروتي. أما ابني جمال هذا فدعوه لي. دعكم منه..

أرى حبيبتي... ن/ تقف إلى جانب أبي، ثم ما تلبث أن تمر من أمامه. ثم تصفق بيديها وتطير. أصرخ بها أن تقف. أن لا تتركني وحدي مع هذه الأسرة المتوحشة.

أرى نفسي أركض ثم أعلو صخرة ووجهي إلى السماء. أنظر إلى حبيبتي.. ن/ ثم أقفز في الفضاء محاولاً الطيران واللحاق بها..

أستيقظ بعد أن أسقط عن السرير إلى أرض الغرفة فأشعر بأن أضلاعي قد تحطمت. فيضيق تنفسي كأنني أختنق، أجمد في مكاني. حيث سقطت على الأرض وأحاول أن أستعيد تنفسي ببطء وهدوء، والنوم ما يزال في عيني.

20 / 8 / ... ظهراً - باريس

قضيت ساعات صباحي - حتى الظهيرة وأنا في غابة بولونيا - كنت أتسكع حينا وأجلس في أكثر الأحيان. أما عندما كنت أمشي فأتأمل ما حولي. أحدق إلى وجوه الذين يمرون بي، وأحياناً أقف عندما تمر بي فتاة جميلة، أتأملها حتى تعبرني فألتفت مديراً رأسي وراءها وهي تمضي فأراها من القفا، أحياناً كانت بعض الفتيات يستغربن تصرفي هذا فيضحكن، وأخريات كن يستأن من ذلك فيعبرنني مسرعات وهن يوجهن إلي بعض الشتائم. ضحكت لنفسي وقلت: قبل أن آتي إلى باريس كنت أسمع عن رقة الباريسيات وتهذيبهن الفائق. وأضحك... أما عندما أجلس فأستعيد في ذهني الحلم الذي رأيته البارحة ليلاً. هذا الحلم الذي أعادني إلى الماضي بشدة. وأجبرني على إحيائه في نفسي رغماً عني -أنا الذي قلت، عندما غادرت مدينتي: سأعتبر يوم وصولي إلى باريس هو يوم ميلادي! ولكن الحلم أعادني مرة ثانية إلى حياتي الماضية، إلى قصة حبي، وأوامر أسرتي، ومحاولاتي الأولى في كتابة رواية كنت قد خططت لها، ولكني للأسف غادرت ولم أنفذ مشروعي. لقد وجدت نفسي في غمرة أحداث لم أتوقعها أبداً.

ما زلت أذكر عندما سمع والدي بحبي لـ...... ن/ كيف جن جنونه: ماذا يا بن الكلب! أهذا الذي توخيته منك؟ أنت الذي كنت أعتبره بمثابة يوسف لنبينا يعقوب. ستحمي شيخوختي من جنون أخوتك ووحشيتهم... ألم يبق في هذه الدنيا سوى ممرضة أن تقيم معها علاقة حب؟ هل جننت؟ هل نسيت ابن من أنت؟ ماذا سيقول عنا ملوك البلد وأمراؤها؟ لم يبق لديهم بنات حتى أرتضي لك زوجة قرعة والدها غير معروفة يا بن...

ما زلت أذكر كيف استقبلني في صباح اليوم الثاني، في مكتبه وقال: لا تدعني أجن، أقصد أن أقابل جنونك بجنون آخر يفوق جنونك... ثم أمرني قائلاً: ستطير في أول الشهر إلى باريس وهناك ستدرس، ستقيم. افعل ما تريده. ولكن إياك أن تطلب مني العودة قبل أن تغسل عقلك مما تلوث به هنا من أفكار! ثم أضاف بحزم: لا تكن سبباً في محق ممرضتك محقاً. وإزالتها عن وجه الأرض، دعها تعيش حياتها مع إنسان على قد مقامها...

أذكر أني فكرت أن أسجل جبروت والدي في رواية أدين بها جبروت أي إنسان وفي أية صورة ظهر. ولكن قرار والدي بتسفيري إلى باريس عطّل مشروعي هذا. ثم جاء الشجار ما بيني وبين... ن/ لأمر تافه جداً. حفزني على السفر إلى باريس. قلت لنفسي، ما دامت لا تحاول أن تفهم وضعي فالأفضل لكل منا أن يفترق إلى حين. وواحدة من اثنتين. إما أن نفترق بعد ذلك إلى الأبد، أو نعيش معاً إلى الأبد. ولكني لم أفهم مقصد...ن/ إلا بعد فوات الأوان، لحظتها شعرت كم كانت عظيمة... لأنها لم تفكر بأنانية، لم تفكر بنفسها أبداً، بقدر ما فكرت بي وبمصيري عندما قالت لي: يجب أن نبتعد عن بعض. ليسلك كل واحد منا طريقه دون أن يفقد كل واحد منا حب الآخر. سنبقى يحب بعضنا بعضاً. هذا هو قدرنا. فأنا وأنت عاجزان. ضعيفان في مواجهة أسرتك، غير قادرين على مقاومتها.

أذكر أني غضبت منها كثيراً، وقلت لها متهماً: قولك هذا يعني تقديم حجة من أجل أن تخلي نفسك من القسم الذي أقسمنا به أمام أنفسنا. أنت حرة. فأنا لن أجبرك على الارتباط بي إن لم ترغبي بذلك.. وداعاً.

أي جنون حملني على أن أقف هذا الموقف المتسرّع؟

وأذكر أيضاً، قبيل سفري بيوم واحد، جاءت لمقابلتي، لتودعني. قالت وهي تبكي: أتمنى لك سفراً سعيداً، لا تنسني من الرسائل..

لم أعدها بشيء، حتى أني لم أشد على يدها كما شدت هي. كان وداعي لها فاتراً. كنت أحمق..

20 / 8 / ... مساءً - باريس.

قبل أن أعود إلى البيت قضيت ليلتي في مقهى «النجمة الآفلة» في الساحة الخامسة.

جلست مريحاً قدمي من تعب تجوالي طوال اليوم، ومطلقاً لأفكاري العنان... لقد أعدت إلى ذاكرتي كل الأيام الماضية، منذ وصولي إلى باريس، فوجدت أني كنت أهرب من نفسي، والهروب في نهاية المطاف لا بد أن ينتهي. لا بد للهارب أن يقف تعباً أو وصولاً إلى المكان الذي قصده في لحظة انطلاقه هارباً. فكرت: لا أستطيع أن أظل هارباً مدةً أربع أو خمس سنوات، أي طوال السنوات التي ستستغرق دراستي لنيل الدكتوراه. لا بد لي أن أقف، وأن ألتفت إلى الوراء قليلاً، لا أستطيع أن أتابع الطريق التي سلكتها حتى اليوم، عندما كنت في بيت أبي، شعرت بأن الحياة وما يحيط بي من أشياء تضيق عليّ. سألت نفسي ما الأسباب يا ترى؟ لا أعرف. كنت غير معجب بأبي الذي سمعت عنه قصصاً تشيب شعر الرأس. كنت غير مصدّق، عندما سمعت حواراً بين أبي وأخي الكبير. عن طريق المصادفة لا غير، بأنهما يجب أن يفكرا جدياً هذه المرة بالصورة التي يجب أن تكون عليها الوزارة الجديدة التي تمهد الحكومة لتشكيلها!

كنت لا أصدق أن والدي يستطيع أن يشكل الوزارة التي يريد، وأن يختار أعضاء البرلمان، وأن يبعد هذا الضابط من موقع حساس ويضع آخر في موقع القوة. كنت أبتسم ساخراً من الذين يقولون لي: أنت ابن ملك، فوالدك هو المالك الحقيقي للبلد الذي نعيش فيه! كنت أكذب هذا القول. أرد عليه: صحيح أن أسرتي غنية ولكنها لم تصل بعد أن تقيل فلان وتعيّن علان. ثم أضيف: وهناك عدد آخر كبير من العائلات، موجودة في البلد لا تقل مالاً عن أسرتي. كانوا يقولون: كلا. عائلتك لها وضع خاص.

لم أعرف في يوم من الأيام الوضع الخاص لعائلتي. لقد بحثت طويلاً لأعرف ذلك. ولكني فشلت، وما زلت حتى الآن لا أعرف هذا الوضع الخاص لعائلتي.

قلت في نفسي وأنا أرتشف الرشفة الأخيرة من قهوة الاكسبريس: علي أن أرسل لـ... ن/ رسالة لأصحح الأخطاء التي ارتكبتها بحقها قبل مجيئي إلى باريس. يجب أن أتحدث إليها عن حياتي هنا.. يجب..

وقمت صاعداً الساحة الخامسة، متوجهاً إلى البيت.

21 / 9 / ..

لقد انتظرت شهراً كاملاً حتى استطعت أن أقنع نفسي بالكتابة إلى...ن/ وعندما حاولت في الليلة الماضية تحرجت. ماذا أكتب لها؟ بماذا أخبرها؟ ماذا أقول لها بعد مضي أكثر من شهرين على وجودي في باريس؟

لقد كتبت خلال الليلة الماضية أكثر من ثلاثين رسالة. ما لبثت أن مزقتها جميعاً. ولم أكف عن الكتابة إلا في الساعة الخامسة الصباحية. قمت إلى الفراش وأنا على أشد ما أكون من الإرهاق والتعب والإحباط. كيف سأكتب رواية. إن لم أستطع أن أكتب رسالة من صفحة أو صفحتين في أحسن الأحوال؟

شعرت بيأس كامل... وما أن تمددت على السرير حتى غرقت في النوم. وفي المنام زارتني... ن/ وكانت زيارتها هذه هي الأولى منذ وجودي في باريس. كنت ممدداً على السرير، وفوق رأسي يطل وجهها علي، ووراء رأسها خلفية خضراء كثيفة من الأغصان والأوراق، يلعب بينها الهواء فتتحرك حركات لينة.

سمعت... ن/ تقول لي: هل نسيت ما قلته لك ذات يوم. عندما ارتكبت ذنباً تجاهي؟ لقد جئتني خافض الرأس، تريد الاعتذار مني، هل تذكر ماذا قلت لك؟

وتبتسم... ن/ ثم أراها تقطف بعض الأوراق الخضر من الشجرة، خلفها، وتنثرها على صدري وتقول: هاأنذا أمامك مرة ثانية. أعرف أنك تأخرت كثيراً في الكتابة إلي، ولكن الكتابة متأخراً أفضل من عدم الكتابة!

أحنت وجهها فوق وجهي، قبلتني على جبيني كأخت كبرى لي وقالت: نم.. وما أن تستيقظ، بادر إلى الكتابة إلي، فأنا بانتظار رسالة منك. ثم اختفت عن أنظاري بعد أن تركت لي وراءها كلمة: أحبك.

... وعندما استيقظت في الصباح كانت الساعة تشير إلى العاشرة. قلت لنفسي إنها بداية رائعة لإصلاح ما أفسدته بسلوكي مع ...ن/ فجلست إلى منضدتي وكتبت لها الحلم الذي رأيته. ثم ختمت

رسالتي بهذه الجملة: مرة أخرى تنقذينني من الموت يا... ن/ حبيبتي.

23 / 9 / ...

اليوم شعرت بانطلاق كبير. ذهبت إلى الجامعة بنفس مفتوحة. شاركت في دروس اللغة بسعادة، قابلت اللجنة التي ستشرف على تحضير رسالتي الجامعية. شعرت كأنهم ينظرون إلي بغرابة، وما أن خرجت من عندهم حتى ذهبت لأطالع وجهي في المرآة، لأستوضح أسباب نظرتهم إلي. لم أجد شيئاً غريباً على وجهي. سألت نفسي: إذن لماذا كانوا ينظرون إلي كأنهم ينظرون إلى رجل قادم من المريخ؟

عند الظهر نسيت الأمر كله. قابلت بعض الطلبة العرب، كان معظمهم من دول المغرب. سألت أحدهم: ألا يوجد هنا، في الجامعة طلاب من...؟ نظر إلي باستغراب وقال: يوجد... وبكثرة. ثم سألا: لماذا تسأل؟ قلت: أريد أن أتعرف إليهم...

في المقصف وأنا أتناول قهوتي مع قطعة من الكيك جلست إلى مائدتي فتاة فرنسية، طبعاً بعد أن استأذنت. قلت لها: تفضلي. كنت قد رأيتها أكثر من مرة. ولكني لم أحادثها. لاقيتها في الممرات والأروقة... سألتها بعض الأسئلة وكانت من باب التحرش بها. ضحكت وقالت: ماذا؟ هل أنت طالب جديد؟ قلت لها: نعم، ثم تابعت: أنا بحاجة إلى فتاة مثلك! رفعت رأسها إلى الوراء قليلاً باستغراب. كأنها سألتني: لماذا؟ فتابعت كلامي: من أجل أن أستزيد من تعلمي للافرنسية. ضحكت وقالت: لا بأس. ولكن كم ستدفع لي أجرة الدرس الواحد؟ ظننتها تمزح. فقلت لها: لا أعرف كم يدفعون. أخبريني عن

ذلك. ضحكت وقالت: لا بأس. اتفقنا. ثم سألتني: متى تريد أن نبدأ الدروس؟ قلت لها: منذ الآن، قالت: ليكن..

قد لا تصدقون أن الفتاة، واسمها: ميشلين قاضتني خمسين فرنكاً في اليوم الأول.. ولكني لم أندم على ذلك، لأني شعرت في نهاية اليوم بأني أصبحت بلبلاً في اللغة الفرنسية.

30 / 9 / ...

اليوم تعرفت إلى طالب من بلدي... من إحدى مدنها الصغيرة. لم يستغرب وجودي في باريس كما استغربت أنا وجوده! في الليل تساءلت، ما الأمر الذي دعاني إلى الاستغراب من وجود طالب يدرس في باريس من بلدي؟ ماذا، هل نحن في القرن الخامس عشر حتى يستغرب المرء وجود السيارة والتلفاز، لم أستطع أن أفسر أمر استغرابي!

سألني الطالب عن دراستي ومكان إقامتي ومنذ متى جئت إلى باريس؟ وعندما أخبرته قال: هذا يعني أنت ما تزال جديداً على باريس؟ قلت له: نعم، قال: لا شك أنك ضائع حائر كما كنت أنا في الشهور الأولى من وصولي؟ أخبرته: لست بضائع ولا حائر، إنما الأمر المقلق بالنسبة إليّ هو عدم انسجامي مع حياتي هنا... فأنا ما زلت مضطرباً لأسباب تعود إلى أوضاعي قبل مجيئي إلى باريس...

ثم حكيت له قصتي. نظر إلي باستغراب وقال: غريب! أيرسلك والدك إلى هنا من أجل أن يبعدك عن فتاة تحبها؟ أجبته: نعم. ضحك وقال: هل تعرف، لو كل الآباء فعلوا ما فعله والدك لسعد

جميع الشبان بذلك... ثم علق: إنها حكاية طريفة..

ولم تمر أيام حتى شاعت قصتي بين الطلبة العرب. فجاؤوا إلي جموعاً يريدون التعرّف إليّ. وهكذا بدأت معرفتي الواسعة بهم. وخاصة الطلاب من بلدي...

11 / 10 / ...

أخبرت ... ن/ في رسالتي الثانية عما حدث معي.

20 / 10 / ...

بصورة غير متوقعة أخذت أعد نفسي للبدء بكتابة روايتي... هذه الرواية التي ولدت فكرتها في رأسي.. قبل مجيئي إلى باريس بأكثر من سنة. لقد سألت نفسي مراراً: كيف يمكنك كتابة رواية وأنت لا تعرف الطريق إلى ذلك؟ كنت أخاف من أن أتناول القلم وأبدأ بالكتابة! لذا كنت أعوض عن ترددي ذاك بقراءة الروايات. لقد قرأت كل الروايات التي وقعت بين يدي.. أذكر، في البداية، كنت أقرأ للمتعة، ثم بعد ذلك، أخذت أقرأ للتعلم، مراقباً الطريقة التي كتب بها الكاتب روايته. دارساً العلاقات الداخلية التي تربط بين أبطالها مهما كانوا ثانويين أو رئيسيين.. حتى أنني ذات يوم، عندما رميت من بين يدي إحدى الروايات، وكانت قد أثرت فيّ تأثيراً مباشراً... أمسكت بالقلم ورحت أصوغ أحداثاً ووقائع وصراعات بين أبطالها، شبيهة بجو وأشخاص الرواية التي قرأت، برغم أن ما كتبته كان تقليداً، ومحاولة سرقة لموضوع ابتكره كاتب آخر، إلا أنني شعرت بقدرتي على إمكانية

الكتابة، ففرحت لهذا الأمر كثيراً.

أذكر أن أمرين دفعاني إلى التفكير في الكتابة. الأول: ما كان يحيط بي بدءاً من الأسرة، التي وجدت فيها سجناً لنفسي، وانتهاءً بالمجتمع الذي كنت أحيا فيه، فإلى جانب حياتي المضطربة، غير المستقرة، كنت أرى في المجتمع صورة قبيحة للإنسان وطريقة عيشه وأسلوب تفكيره... لم أكن راضياً عما أراه فيما حولي من قبح وذل وخسة. مثال: كنت أستغرب أشد الاستغراب كيف يمكن لإنسان، له اسم ومكانة أن يرضى على نفسه أن يكذب من أجل إرضاء شخص مثل أبي؟ أو امرأة تجبر نفسها على العيش مع شخص مثل أخي الكبير... كنت أفكر ملياً، كيف يمكن للبشر أن يظهروا بمظهر غير مظهرهم الحقيقي، وأن يتكلموا بكلام غير مقتنعين به؟ أما الأمر الثاني، فهو ما يدور في وجداني ويمور في قلبي...

أذكر منذ طفولتي كنت لا أصغي سوى إلى صوتي الداخلي، هذا الصوت الذي كان مميزاً من كل أصوات أفراد أسرتي. هم يجدون في صورة الأسرة -أسرتي- عظمة. أما أنا فكنت أجد فيها قبحاً ما بعده قبح. كنت شاهداً على حادثة وأنا طفل. لم أنسها، ولن أنساها أبداً بتقديري: كيف أن أبي صفع والدتي على فمها ففجر الدم من بين أسنانها، لأنها فقط، اختلفت معه بالرأي! لم أعد أذكر الموقف الذي اختلفا عليه إنما أذكر أن والدتي قالت لأبي: لم أقتنع برأيك.

لقد نما في داخلي إحساس خاص بي. من أن الجو الذي أعيش فيه، هو جو خانق، غير صالح للتنفس.

أذكر أني وقعت ذات يوم على إحدى روايات كافكا العظيم... لا أصدق نفسي حتى اليوم كيف قرأتها، وكانت «التحول» سبع عشرة

مرة، لقد وجدت فيها الجو الذي كان يحيط بي وأنا بين أفراد أسرتي... وقد اتضح لي هذا وتأكد. يوم عرف والدي بالحب الذي بيني وبين ... ن/ فوجدت نفسي محاصراً ككل أبطال كافكا. ولم أستطع أن أنفذ من أي ثغرة فتحتها، لأنني ما إن كنت أنفذ، هكذا كان يخيل إلي، حتى أجد نفسي مصطدماً بجدار صلب يقوم أمام الثغرة التي فتحتها... وهكذا كنت أرتد إلى الوراء من جديد، لألوذ بجحري...

سألت نفسي كثيراً: ماذا، ألم يتغير شيء يا ترى في هذه الدنيا؟ ألأنها ابنة رجل فقير حتى يقوم والدي بجهد عظيم يفوق الوصف من أجل أن لا أفكر فيها؟

هكذا على ما يبدو...

قلت في نفسي، وأنا في ساعة يأس تام: يجب أن تكتب رواية عن هذا الأمر، عن هذا الحصار الذي وجدت نفسك فيه، اكتب على طريقة كافكا، صف الحصار الذي ضربوه حولك وأحاطوك به... واليوم أقول: لولا مجيئي إلى باريس لكنت قد بدأت الكتابة في روايتي...

وأقول أيضاً: لقد فرغ الجو لك يا جمال، أمامك متسع من الوقت والمال والحرية لتكتب ما كنت تود كتابته...

2 / 12 / ...

ما زلت أعيش تحت تأثير الليلة الماضية! لقد أحاط بي جمع عجيب! لم أصدق في يوم من الأيام، أن يوجد مثل هؤلاء الناس، في جمع متنافر الأهداف والغايات. وتساءلت: ثم أنهم، جميعاً من أبناء

البلد؟ إنه لأمر غريب!كنت قد تعرفت إلى أحد الأصدقاء. أخفى عني اسمه الحقيقي لأمر ما... فلم ألح في معرفة اسمه، فاكتفيت بالنداء عليه، كما ينادي عليه الآخرون بـ: «أبو أحمد»...

نظر إلي طويلاً ثم قال: هل حقاً أن والدك نفاك إلى هنا من أجل الفتاة التي تحبها؟ قلت له: ولماذا أكذب عليك؟ قال: قد يكون لك وضع خاص، مثل ما هو لبعض الطلبة، قلت له: ليس لدي أي وضع سوى ما أخبرتك به. ضحك بتردد، ما لبث أن قال: كم أتمنى لو كان لي أب مثل والدك! ثم دعاني إلى جلسة مع بعض الأصدقاء في نزل أحدهم مساء... قلت: لا بأس. سآتي إن لم يطرأ على يومي ما يجعلني أن أتخلف عن الموعد مرغماً..

وهكذا ذهبت إلى الموعد دون أي علم أو معرفة بطبيعة الموعد وبالأشخاص الذين سيحضرون. كنت قد خمنت، أنهم يجتمعون للبحث عن اللهو والمرح واللذة.. قلت لنفسي، لقد ضيقت عليك كثيراً أيتها النفس، فقد آن الأوان أن أفرّج عنك الضيق المرافق بالكرب...

وفي ساعة الموعد، حضر الجميع. كانوا أكثر من عشرة. كان لبعضهم أسماء غريبة. شككت في أن تكون أسماؤهم الحقيقية. كان قد مضى على بعضهم في باريس أكثر من عشر سنوات، وبعضهم قد وصلها حديثاً، أي منذ بضعة شهور، مثلي. ثم استغربت عندما لم أجد بينهم أية فتاة! ملت إلى أذن «أبو أحمد» وسألته: أرى سهرتكم قائمة على الحاف؟ لم يفهم علي أول الأمر، ثم ضحك وقال: نحن ضد المرأة. قلت له: لا تقل هذا يا رجل.. ثم أضفت: لو اتضح لي صحة كلامك سأنسحب فوراً.

وضحكنا بصخب. قال وهو يشد على ساعدي: لم نجتمع اليوم

من أجل اللهو والقصف. إنما من أجل البحث في الطريقة التي سنعلم فيها لجنة حقوق الإنسان العالمية بأوضاع المساجين لدينا.

هززت رأسي وكأنني أعرف تفاصيل ما أورده علي «أبو أحمد». ثم شعرت بيد تقبض على قلبي عندما قال لي ذاك الخبيث القابع في نفسي: على ما يبدو أن أصحابك يعملون في السياسة، ولهم نشاطات، وربما معارك أيضاً، فيها، سألت «أبو أحمد». إن كان لاجتماع هؤلاء طابع سياسي؟ أجابني: لا تمزح يا رجل. ثم أضاف: وهل تراهم في طابع عارضي أزياء؟ قلت لنفسي: علقت يا ولد.. أنت الذي لم تهتم في يوم من الأيام بالسياسة، ها أنت ترى نفسك في خضم معاركها.. وانسحابك سيعني لهم، أنك جبان، مذعور، لا تعرف سوى نفسك. أما استمرارك فيعني تورطك في مشاكل أنت بغنى عنها.. ثم قلت: ابق. دع الليلة تمر بسلام. أما الغد فأمره بيدك. يمكنك أن تسوسه كما تريد.

وهكذا، في البيت بعد عودتي، تمددت على السرير ورحت أستعرض ما قالوه، كما أني حاولت أن أبين لكل واحد منهم الصورة التي ظهر عليها.. حاولت أن أستعرض في ذاكرتي أسماءهم الغريبة.. ولم أصدق ما سمعته من بعضهم. نظرت إلى محمود وكان من أبناء مدينتي، وقد عرفت ذلك من لهجته، فقال إنه أمضى في السجن ثلاث سنوات. وهرب ذات يوم من المشفى بعد أن أدخلوه إليها لمرض ألمّ به فراح يتقيّأ دماً... كما أنه ظل أكثر من ثلاثة أشهر مختبئاً، حتى استطاع الهرب إلى باريس. قلت: ماذا؟ هل هؤلاء يعانون من عقدة العظمة حتى يريدون أن يظهروا جميعاً بمظهر الأبطال الصناديد؟ كما أني لم أصدق «أبو زهير» حين قال: إنه رفض الخدمة الإلزامية في الجيش الذي وقف ضد الشعب...

كانوا يتحدثون وكأنك تسمع حكايات من ألف ليلة بلسان رواة عدة! أمور لا تصدق! تمددت على السرير أفكر، وأحاول أن أتذكر بعض الأمور التي مرت بي، ولكني لم أستطع. ليس لأنني نسيت ما مر بي، إنما قصة حبي وصراعي مع أهلي وحكاية باريس ونفيي إليها، كانت طاغية على وجداني. قلت هذا ما يجب أن أتحدث لهم عنه عندما طلبوا مني الحديث عن سبب وجودي في باريس.

ضحك الجميع بعد أن انتهيت، قال أحدهم مازحاً: كان الأولى بك أن تكون الآن في اجتماع للعشاق المظلومين لتطالبوا برفع الحيف عنكم. ضحك بعض الحضور، وابتسم الآخر. ولم يعلق ثالث. ثم أفقت لنفسي وقلت: يا الله ما أوسع العالم. ثم قلت: أنا الذي اسودت الدنيا في وجهي، ولم أعد أرى إلا مصيبتي (ويمكن لي أن أضع كلمة مصيبة بين قوسين، لأنني لو أردت أن أقاوم أسرتي في رفض زواجي من... ن/ لما وجدت نفسي اليوم في باريس، إنما لكنت في مدينتي، وفي أحضان من أحب... ولكني اعتبرت أمر رفضهم، هو القرار القاطع، الباتر في إنهاء قصة حبنا، أنا و...ن/ لذا رحت أبكي وأنوح كقيس أو روميو من أجل حبي الضائع!) سألت نفسي: ماذا كنت سأفعل لو مررت بإحدى تجارب هؤلاء الذين يحيطون بي؟ قلت لشاب من ريف مدينتي، كان يجلس إلى جانبي، إن كان حقاً هرب بجلده لأن رجال الأمن جاؤوا يطالبون به كرهينة حتى يسلم شقيقه الأكبر نفسه؟ هز رأسه مجيباً، قلت له: لا شك أنهم كانوا يمزحون يا رجل، لا يمكن أن يأخذوك عوضاً عن أخيك؟! فهم يطالبون بشقيقك فما حاجتهم إليك؟ ماذا سيفعلون بك؟ أجابني: لا أعرف ماذا كانوا سيفعلون بي، ولكني أعرف أمراً وحيداً. إنهم جاؤوا يطالبون أبي ليسلمني إليهم رهينة عوضاً عن أخي.. وهم لا يمزحون في هذه الأمور.

كما أني سمعت قولاً لأحدهم، من الحاضرين: إن ظل الدكتاتورية قد كبر في السنوات العشرة الأخيرة، وامتد حتى شمل البلاد كلها، فقد طورد ولوحق أكثر من سنة قبل أن يستطيع الهرب إلى باريس.

طبعاً هذا جزء صغير مما سمعته، وما خفي في نفوسهم من الحكايات والأخبار لا شك بأنه الأكبر، لذا، في آخر الليل، وأنا سهران بعد أن هرب النوم من عيني وصلت إلى اقتناع بأن عالمي، ضيق، وتافه وغير جدير بالحياة...

في الصباح قابلت «أبو أحمد» وقلت له: هل تعرف؟ لقد فكرت طويلاً فيما سمعته البارحة من الأصدقاء والشبان، فوجدت الأمر ليس غريباً أبداً كما تصورته في البداية، ثم قلت له بحماسة: أريد أن أساعد هؤلاء. أريد أن تدلني إلى الطريق - أقصد الطريق التي تمكنني أن أساعدهم فيها...

ابتسم «أبو أحمد» وقال: بارك الله فيك..

7 / 12 / ... صباحاً - باريس

قابلت اليوم، في كافتيريا، ميشلين، كانت جالسة إلى مائدة بمفرش أخضر.. وحيدة مع كتبها. وكوب من الشاي وصندويشة تقضم طرفها وهي تقرأ في صحيفة.

صباح الخير..

رفعت رأسها إلي، وردت وهي تبتسم: صباح الخير..

قلت: هل تسمحين لي بالجلوس إلى ماتدتك؟

قالت: تفضل. ثم أضافت: منذ حين كنت أفكر بك!

ابتسمت لها وقلت وفرح يطفو على وجهي: يا لسعادتي.. هل حقاً فكرت بي؟

أجابت: نعم. لقد سألت نفسي: إن كنت ما تزال بحاجة إلى دروس اللغة الإفرنسية؟

سألتها: وماذا ترين الآن؟

أجابت: أنت تتكلم بصورة لا بأس بها. لقد تحسنت لغتك بشكل جيد.

سكتت وهي تضحك. لم أنطق بحرف، كنت أنظر متأملاً وجهها، كان ذا بشرة وردية، تخفي جبهته خصلات ناعمة، شقراء اللون. كانت جميلة بشكل لا يوصف. قالت: ما بك؟ كأنك تراني أول مرة..

قلت لها: نعم، أراك أول مرة بهذا الجمال. ثم أضفت: وهذه البراءة أيضاً.

ضجت بالضحك وهي تقول: آه.. البراءة..

مددت يدي وأمسكت أصابعها، وقلت: ما رأيك أن نخرج من الكافتيريا.. فالجو جميل، دافئ. يجب أن نستغل فترة سطوع الشمس، فنذهب إلى مكان ما لنستمتع بأشعتها.

قالت: لا بأس...

رفعت كتبها وضمتها إلى حقيبتها، وقالت: هيا..

خرجنا إلى الساحة، ومنها توجهنا إلى قصر الثقافة وهو من آثار القرن السادس عشر، وسرنا بحذائه، ثم انطلقنا باتجاه شارع يقوم على جانبيه أبنية حديثة جداً.

قلت لها وأنا أنظر إلى السماء، ما رأيك في مشاهدة أحد الأفلام الكلاسيكية، لقد مررت بسينما بيبلوس منذ يومين، فقرأت الإعلان عنه، لقد بدأ عرضه اليوم؟

اعتذرت مني وقالت: أنا آسفة. سألت عن سبب اعتذارها فقالت: لم أخصص من مصروفي لهذا الأسبوع مبلغاً من المال لمشاهدة السينما. سألتها: ماذا لو دعوتك على حسابي؟ وقفت ميشلين ونظرت إلي ثم قالت: ولكن لماذا؟ ثم أضافت: أخبرني... هل أنت حقاً من الأغنياء. لقد أخبرتني ذات يوم بذلك، ولكني لم أصدقك!! لأن كل عربي يقول عن نفسه، إن لديه بئر بترول في الصحراء!.

ضحكت لها وقلت: أنا لا أملك حتى برميل منه. ولكني من أسرة غنية.. ثم أضفت: هل تريدين أن أحدثك عنها؟. سألتني: تحدثني عنها.. أسرتك.. لماذا؟ قلت لها: لكي أعلمك كم هي غنية. وأعلمك أيضاً لماذا أنا لا أحب أسرتي؟ قالت: لا تحب أسرتك لأنها غنية! قلت لها: نعم.. سألتني: هل أنت يساري؟ ضحكت: كلا. ولست يميني أيضاً.. ولكني لا أحب أسرتي، لأنها تقوم بأعمال ليس لها علاقة بالبشر.. قالت بتعجب: ماذا؟ قلت: كما أخبرتك. إن كنت تريدين.. يمكن أن أحدثك بعد خروجنا من السينما..

7 / 12 / ... عصراً – باريس

في البيت لديّ، ونحن نرتشف الشاي بدأتها بحديث طويل. هي

لم تأخذ ما أقصه عليها إلا بشيء من المزاح والمبالغة. أما أنا فشعرت بغضب في نفسي. قلت لها: رغبتي في الحديث هي التي تدفعني إلى التحدث ولا شيء آخر.. فأرجو أن تحترمي الرغبة هذه! أمسكت بيدي وقالت: أنا آسفة. ثم أضافت: لا تكن حساساً أكثر من اللازم. أنا أصدقك، ولكني أجد الأمر على شيء من الطرافة. ثم أضافت وهي مستمرة على الضغط على يدي: أنا لا أقدر على تصور والدك؟ أحاول أن أرسم صورة له في ذهني فلا أستطيع! استغربت من كلامها. سألتها: تستغربين من والدي ولا تقدرين رسم صورة له؟ ولكن لماذا تريدين رسم صورة له؟ ثم أضفت بسخرية: إن كنت تريدين صورته فلدي واحدة له.. في جعبتي.. ضحكت ميشلين وقالت: أنا لا أقصد الصورة الفوتوغرافية. إنما الصورة المجازية. لأنني كلما تخيلته كما أخبرتني، أنه أودع أحد المصارف مائة ألف فرنك وأرسلك إلى فرنسا للدراسة فيها. وذلك ليس لعلم يريد أن تتعلمه أو لمصلحة له يريد أن تقوم بها، إنما من أجل أن يبعدك عن فتاة تحبها وتحبك...

سكتت ميشلين وهي تنظر إلي كأنني قادم من كوكب مجهول، غير معروف لبني البشر. ثم قالت: أتعرف. أمركم غريب يا أبناء الشرق.. لقد أقنعني صديق لي في السنة الفائتة، اغتيل بأيدي مجموعة إرهابية من بلاده في إحدى اجتماعات المعارضة اليسارية. أقنعني بأن الصورة التي رسمناها للشرق عبر ألف ليلة غير حقيقية، إنما هي صورة خيالية.. ولكن ها أنت تعيد بحكاية والدك هذه، صورة ألف ليلة القديمة مرة ثانية إلى ذهني. ثم قالت بصوت خافت شارد: أم ماذا؟

لقد أعجبتني الصورة التي ارتسمت في خيال ميشلين عن حياتنا، نحن أبناء الشرق التي استمدتها من حكايات شهرزاد في

لياليها الألف... قلت وأنا أرجوها: حاولي أن لا تقاطعيني. استمعي إلي فقط. ثم احكمي بعد ذلك على أي الصورتين حقيقية وأيهما خيالية مستمدة من ألف ليلة. ثم أضفت: أنا لا أعرف بماذا حدثك الصديق الشهيد الذي أخبرتيني عنه، ولكني أعرف، طالما هو يساري، واغتيل على أيدي الشرطة فإنه حاول في حديثه أن يكون بعيداً عن الخيال قدر الإمكان، ليس هذا وحسب وإنما رسم لك، أن الشعب لدينا، ليس كالشعب الفرنسي يمكنه أن يقف في وسط الساحات ويطلق العنان لصوته في سقوط رئيس الجمهورية. أو في رفع دعوى قضائية على رجل أمن لأنه أساء التصرف مع مواطن من مواطني الجمهورية بحيث شتمه في أمه أو أخته... أعرف هؤلاء اليساريين يا عزيزتي.. ولكني، سأحدثك بواقعية، أقصد سأحاول أن أختار فقَراً واقعية تماماً. وعندما أنتهي من حديثي، ستجدينه غريباً، خيالياً، برغم واقعيته كحكايات شهرزاد. هل أبدأ؟

ابتسمت لي، ثم هزت رأسها، أن أبدأ.

قلت لها: لكي تكون حكاياتي موثقة وبعيدة عن عنصر الخيال سأحدثك عن أسرتي، لأنني أعرف حكاياتها جيداً. أعرف سلوكها وتصرفاتها، وقناعاتها وأخلاقها، وأيضاً فلسفتها... سألتها: هل اتفقنا؟

هزت ميشلين رأسها موافقة. ابتسمت لها وسألتها: هل قرأت حكايات ألف ليلة؟ لوت شفتها السفلى علامة أنها قرأت بعض حكايات، أو اطلعت عليها، أو شاهدتها في بعض الأفلام السينمائية..

قلت: لا بأس. ثم تابعت: كانت شهرزاد راوية حكايات ألف ليلة تبدأ حكايتها بقولها: بلغني أيها الملك السعيد، أن.. أما أنا يا ميشلين

فأقول، بلغني أيتها الحبيبة أن والدي كان رجلاً يندر وجوده بين الرجال! لقد استطاع في سنوات قليلة أن يحقق لنفسه إمبراطورية سرية متشابكة المصالح والأهداف لا مثيل لها. لقد استطاع أن يجعل من الناس البسطاء خدماً متفانين في خدمته، واستطاع أيضاً أن يجعل من كل اللصوص والقوادين والسماسرة رهن إشارته.

وتابعت عندما رأيت الاستغراب في عيني ميشلين قلت: لا تستغربي، فأنا لا أتحدث عن ملك أو دكتاتور، أتحدث عن رجل هو الملك والدكتاتور والشعب. هو كل شيء..

قاطعتني ميشلين: هل تتكلم بجد أم أنك تمزح؟

أقول لها: أقسم لك أنني أقول الجد ولا شيء غير الجد! ثم قلت لها: يكفي أنه نفاني إلى باريس لأنني أحببت فتاة من عامة الشعب..

سألتني: هل والدك، أقصد أسرتك من الأسر الأرستقراطية النبيلة التي... قاطعتها بضحكة قوية، فكفت عن متابعة كلامها. قلت لها: ماذا تقولين؟ عن أية أرستقراطية تتحدثين؟ نحن، لا يوجد لدينا حتى طبقة برجوازية كالتي لديكم فتسألينني إن كان والدي من...؟ كلا يا عزيزتي، إنه واحد من عامة الشعب. طبعاً كان سابقاً. أما اليوم فهو من طبقة لا اسم لها. ولكنها تملك البلاد كلها...

توقفت عن الحديث هنا. أما ميشلين فكانت تنظر إلى وجهي بشك كأنها في حيرة من أمرها. هل تصدق ما أخبرتها به، أم تعتبره نوعاً من الكلام الذي لا أساس له من الحقيقة؟

15 / 12 / ....

تلقيت اليوم رسالة من... ن/ لقد تأثرت كثيراً مما قالته فيها.

شعرت بعد انتهائي من قراءتها بأني وغد خسيس..

17 / 12 / ...

قضيت الليل بكامله في كتابة رسالة جوابية إلى ...ن/ ولكني فشلت في إنهائها. لم أستطع أن أقول ما وددت قوله لها. كنت أريد أن أحدثها عن حياتي في باريس. ولكني في اللحظة الأخيرة كنت أشعر بأني لو فعلت، سأكون كدون جوان، أتحدث لها عن غرامياتي مع ميشلين، فكنت أمزق الرسالة، ثم أباشر بكتابة واحدة أخرى أتحدث فيها عن علاقتي الجديدة بالمنفيين... شعرت أيضاً في نهاية الرسالة، أني أعمل عليها بطل.. فمزقت الرسالة أيضاً..

وقفت حائراً ماذا أكتب لها؟

جاءتني الفكرة بعد طول انتظار. قلت لنفسي لماذا لا أكتب عن مشاعري لها وغربتي التي أعاني منها، وعن أشواقي إليها.. ثم أنهي رسالتي بفقرة تحكي عن أمل اللقاء القريب بها؟

طبعاً هذه المشاعر لم تكن كاذبة لدي. فأنا أحببت ...ن/ وما زلت بكل كياني، ولكن ما حدث معي كان فوق طاقتي، لم أستطع أن أرفض طلب والدي علناً، هكذا وجهاً لوجه... قلت لنفسي، لا بأس.. سأمتثل لأمره وأسافر إلى باريس، سنة وسنتين وثلاث سنوات، ثم ماذا بعدها؟ سأعود مهما طال الزمن إلى البلد.. حيث...ن/ قلت لنفسي إن وجدتها تنتظرني سأتزوجها مهما كانت الظروف. قلت أيضاً، لن يقدر أبي أن يفرض رأيه علي إلى الأبد، بخاصة عندما يجد لدي الإصرار على أمر زواجي من...ن/ أي سيرضخ في نهاية المطاف.

أما إن لم تنتظرني فسأكون بحل من وعدي لها بالزواج.

هذا ما فكرت به. ولكني لم أتحدث عن هذا لـ.....ن/ إنما تركت الأمر كامتحان لها... تحدثت في رسالتي عن نهر السين وسر جريانه الخالد. تحدثت عن متحف اللوفر وزيارتي المتكررة له... ثم أعربت لها عن رغبتي في أن تكون إلى جانبي وأنا أتأمل لوحة الجيوكندا... أو تمثال فينوس دي ميلو.. أو أعمال الفنانين الانطباعيين بخاصة تفاحات سيزان، أو تماثيل رودان... ثم حدثتها عن رغبتي الشديدة في تقبيل فمها الجميل في إحدى الحدائق، أو على أحد الكراسي الموزعة على الأرصفة، أو الجلوس معها في أحد المقاهي الرصيفية.. ثم اختتمت رسالتي بقول، إني أحبها، وما زلت أحبها. وسأحبها إلى الأبد.. وفي الصباح رميت الرسالة في أحد صناديق البريد في شوارع باريس.

21 / 12 / ...

في الجامعة، وجدني «أبو أحمد» فسحبني من يدي إلى جانب وأخبرني، على أنه يبحث عني منذ الصباح، سألته عن السبب؟ فقال: ما رأيك أن تحضر معنا في يوم غد، اجتماعاً له طابع سياسي؟ سألته: كيف له طابع سياسي؟ قال: وردتنا بعض الأخبار عن اعتقالات جديدة لدينا. وهناك أخبار غير مؤكدة بعد، أن ثلاثة من المعتقلين القدامى قد ماتوا تحت العمليات التعذيبية..

قلت له: وماذا تريدني أن أفعل؟ أقصد في حال ذهابي إلى الاجتماع؟

قال: ما نريده هو أن نحشد أكبر عدد ممكن من الناس، بخاصة من أبناء البلد لأن مثل هذه الحشود السياسية تهتم بها الصحافة ووسائل الإعلام الفرنسية، وبالتالي، يمكن أن يكون هذا عامل ضغط على السلطة في بلدنا، في أن لا تتمادى في عملياتها ضد القوى اليسارية، ومن جهة أخرى، يجب أن تعلم السلطة، أن المعارضة غير غافلة عن أعمالها، وأنها، أي المعارضة، لن تلقي أسلحتها بسهولة أمام الظلم.

في البيت فكرت طويلاً بما قاله «أبو أحمد» لي، فوجدته مشوشاً، غير جلي، قلت نحن نبعد عن البلد آلاف الكيلو مترات. وما يقوم به هؤلاء المعارضون لن يؤثر بشيء على السلطة التي يعارضونها. وإن أثر -وهذا افتراض- فلن يكون فاعلاً. سألت نفسي: لماذا لا يعودون إلى البلد، وهناك يعارضون ويقاتلون؟ ولكني لم أناقشه فيما دار في رأسي من أفكار وتساؤلات، إنما قلت له: لا بأس إن كانت الغاية من ذهابي هي زيادة في الحشد، وليس لأمر آخر فسأكون هناك.. في الوقت المحدد.. ثم سألته، ألا تحتاجون إلى أموال؟ لا أعرف لماذا طرحت عليه هذا السؤال؟ وما الذي دفعني إليه؟ لم أشعر إلا ولساني يدور به.. شعرت في قرارة نفسي أن مثل هذه الأعمال لا بد لها من المال - أو شعرت في دخيلة نفسي بشيء من التردد في الذهاب إلى مثل هذه الحشود التي قد تسبب لي بعض المشاكل. فيمكنني بقليل من المال أدفعه لهم دون ذهابي إليهم، أن أجنب نفسي مثل هذه المشاكل والخوض فيها...

لا أدري بالضبط الأسباب النفسية التي دفعتني أن أسأل «أبا أحمد» ذاك السؤال. إن كانوا بحاجة للمال؟

نظر إلي وقال، ولكن بعد حين من التردد: بصراحة، نحن بحاجة..

قاطعته: إذن لماذا لم تخبرني..

لوى «أبو أحمد» شفته وقال: لا أعرف، أو ربما ما زال الوقت باكراً في مطالبتك بالمال؟ سألته باستغراب: كيف ما زال الوقت باكراً؟ ثم هل هناك وقت معين لطلب المال؟ ابتسم لي وقال: لم نعرفك بعد بشكل جيد. ثم أضاف: ثم نحن لا نريد أن نورطك في أعمال أنت لا تعرف بعد عقبى نتائجها..

سألته: هل هي أعمال خطرة..

لوى شفته وقال: ليست خطرة للإنسان المؤمن بأهدافها. أما الذين ليس لديهم أهداف. أو ليست واضحة لهم بعد، فتعتبر خطرة.. وأنت.. كما تعرف جديد على الأمر..

هززت رأسي وقلت: لا بأس -سأحاول أن أطلع على الأهداف التي تعارضون من أجلها. ولكن هذا الأمر لا يمنع بالنسبة إليّ أن أدفع لكم بعض المال.. وإن أردتم أن أدفعه الآن فلا بأس أن أكتب لكم شيكاً بالمبلغ الذي يكفيكم..

ما زلت أذكر كيف فغر «أبو أحمد» فاه دهشة عندما سمع بالشيك.. ولكنه لم يعلق على الأمر بسؤال أو استفسار، إلا أنه قال: لا بأس.. ليس الآن.. سنطلبه منك فيما بعد.. وشكراً..

ودّعني ومضى بعد أن أعطاني موعد الاجتماع في اليوم والساعة.

28 / 12 / ...

مع اقترابنا من رأس السنة شغلتني ثلاثة أشياء. الاحتفال به.

وأين؟ وكيف.. اتصلت بميشلين وسألتها عن أفضل الطرق للاحتفال برأس السنة؟ نظرت إلي باستغراب وقالت: كما يجري أي احتفال!

قلت لها: أعرف. ولكن كيف يمكنك مساعدتي؟

سألتني: بماذا تريد أن أساعدك؟

سألت نفسي، حقاً، بماذا أريد أن تساعدني؟ وما لبثت أن قلت لها: أريد مكاناً يتسع لأربعين شخصاً..

هزت رأسها وقالت: هل من الضروري أن يكونوا أربعين شخصاً؟ ثم وضحت: أقصد لماذا لا تحتفل أنت كما يحتفل بقية الناس؟؟

سألتها: وكيف يحتفل بقية الناس هنا؟

قالت: واحدة من اثنتين. إما أن يكون الاحتفال خاصاً. أي أن يجتمع مجموعة من الناس يعرفون بعضهم.. أو أن يكون عاماً، أي لا أحد يعرف بعضه، سوى اثنين أو ثلاثة.. في مجموعة كبيرة من الناس. في مكان عام... مقابل مبلغ معين من المال.

قلت: لا أريد مثل هذا الاحتفال العام. أريده احتفالاً خاصاً، في مكان واسع يسع كما قلت لك لأربعين شخصاً..

لوت ميشلين شفتها السفلى وقالت: أمركم غريب. كأنكم مسؤولون عن العالم كله. ثم أضافت ما علاقتك بالآخرين، ليبحث كل واحد لنفسه عن طريقة يحتفل بها..

ابتسمت لها وقلت: هذا هو الأمر الذي يميزنا عنكم.. أقصد نحن، في الشرق وأنتم في الغرب.. لوحت يدها أمام وجهي وقالت: أتمنى أن تنسى هذه المقولة. فالحضارة لم تعد بحاجة إلى هذه

التفرقة بهذه الطريقة - أقصد طريقتك..

قلت لها: المهم يا عزيزتي أن تبحثي معي عن مكان يسع هذا العدد من الناس للاحتفال..

أجابت: ولكن هذا سيكلف مبلغاً كبيراً من المال؟

هززت لها رأسي وقلت: لا بأس.. يجب أن نبحث منذ الآن عن المكان الذي سنستأجره ليلة عيد رأس السنة الجديدة..

نظرت إلي غير مصدقة وحاولت التكلم، ولكني وضعت يدي على فمها وقلت: افعلي ما أطلبه منك يا ميشلين.. ثم أضفت: مكان يتسع لأربعين شخصاً يأكلون ويشربون ويرقصون.. أما المبلغ فلا تفكري فيه..

ظلت تنظر إلي طويلاً. ثم سألتني: هل جمعت المبلغ من الأشخاص الأربعين؟

أجبتها: لا ..

سألتني: إذن كيف ستحجز وأنت لا تملك المال..

سألتها: من قال لك أني لا أملك المال؟

نظرت إلي بدهشة وقالت سائلة: هل لديك مبلغ كبير؟

أجبتها ببرود: نعم. ثم أضفت: ألم أقل لك إن أبي وضع لحسابي في المصرف مبلغ مائة ألف فرنك؟

قالت لي بدهشة: أنت أجن من والدك!!

لم أفهم سبب قولها هذا. إلا أنني أجبتها: ليس الآن وقت معرفة من الأجن. أنا أم والدي..

31 / 12 / ... صباحا - باريس

قال «أبو أحمد»: ما هذا الجنون الذي ارتكبته؟

سألته باستغراب: أي جنون تقصد؟ أجاب: جنون حجزك لكافتيريا (العاصفة الثلجية)؟ سألته: وما الجنون في ذلك؟ قال: يا ابني.. أنت في باريس، ولست في صحراء، تحت خيمة بدوية لزعيم عشائري تريد أن تثبت للآخرين كرمك وحسن ضيافتك.. ثم قطع كلامه وتابعه في منحى آخر، ألا أخبرني.. هل والدك غني إلى هذا الحد من الغنى كما أخبرتني؟

لا أدري لماذا التزمت الصمت ولم أجب إلا بعد مضي وقت طويل، كان «أبو أحمد» خلاله قد أخذ يعبث بأصابعه ينتظر الجواب. قلت لنفسي، أي أغبياء هؤلاء الذين علقت معهم؟ كيف يفكرون؟ ثم لماذا هم ضد الأغنياء.. قد يكون هناك أغنياء أوباش، سفلة. ولكن ليس كلهم كذلك.. قاطعني: ماذا؟ هل ستظل صامتا؟

انفجرت بضحكة قوية، ثم قلت له مازحا: لست صامتا، إنما كنت أحدث نفسي..

ابتسم ساخرا وقال: بماذا كنت تحدثها؟

قلت: كنت أحدثها عن بعض الأغبياء الذين لا يفرقون ما بين الثريا والثرى..

سألني ساخرا: ومن هؤلاء الأغبياء؟

لم أجبه. إنما قلت: لا بأس. أود أن أعلق على بعض أسئلتك السابقة.. أولا، لست بدويا في خيمة زعيم عشائري... أعرف جيدا، أنا في باريس.. رغم أنه لم يمض على وجودي فيها إلا بضعة أشهر.

أما الضيافة وحسن الكرم فلم أفكر بهما أبداً... وما قمت به، هو محاولة متواضعة لرد بعض الدين للشبان الذين يعانون في منافيهم.. حتى لو كانت باريس أو جنيف..

هب «أبو أحمد» واقفاً وقال: أمرك غريب يا فتى.. ثم سألني: أخبرني، هل حقاً والدك غني؟ نظرت إليه طويلاً، ثم ابتسمت باستخفاف وقلت: هل سمعت باسم أسرة سعيد الحلبي؟ هز رأسه بالإيجاب. قلت له: حسناً.. أنا أصغر أبنائه..

ارتد إلى الوراء غير مصدق ما سمعه مني. بعد أن تلون وجهه بعدة ألوان، وألقى انفعاله الداخلي ظلا من الشك والريبة على سحنته. كان الظل طويلاً.. ثم حرك يديه بحركات مضطربة منفعلة كأنه يقاوم قوة سرية تريد أن تكبل له راحتيه..

اقتربت منه خائفاً وسألته: ما بك يا صاحبي.. ألم تصدقني؟ أتريد أن أقدم لك بطاقتي الشخصية؟

حرك فمه بعدة حركات، ولم أفهم منه كلمة واحدة، ولكني عرفت معنى ما قاله وذلك عن طريق قراءتي لحركة شفتيه، كأنه يقول لي، هذا يعني أنت من أسرة الحلبي وليس لأنك من... وخرج باندفاع غريب، مما اضطرني أن أركض وراءه وأنادي عليه، أن يقف... ولكنه مضى راكضاً كأن ناراً لاحقته.

31 / 12 / ... مساء - باريس

بدأ المدعوون بالقدوم منذ الساعة الثامنة، وما أن أعلنت الساعة عن العاشرة حتى جاء معظم المدعوين باستثناء «أبو أحمد»

وجماعته.. شعرت بشيء من القلق. لماذا لم يأتوا .. هل كان الحوار الذي دار بيني وبينه في الصباح له علاقة بعدم مجيئهم ومقاطعتهم للاحتفال؟

لقد شاركت فيما بعد في جميع مراحل الاحتفال وأنا في وضع لا احسد عليه. كنت من جهة أظهر فرحاً وسعادة، ومن جهة أخرى كنت غارقاً في نفسي، يشدني انفعال ويتركني انفعال آخر، وأنا أطرح على نفسي سلسلة من الأسئلة التي لم تنته حتى مع انتهاء الاحتفال. كنت أبحث عن الأجوبة عن تساؤلاتي، ولكني في الوقت نفسه أعجز عن إيجاد حرف ليخفف ما أعانيه من صراع نفسي وأنا أتذكر حالة «أبو أحمد» عندما عرف أنني أحد أبناء أسرة الحلبي الشهيرة. قلت: أيمكن أن يكون لاسم أسرتي هذا الوقع المخيف في النفس، ألهذا الحد أسرتي شريرة حتى يمكن لاسمها أن يوقع هذا البلاء في الذي يسمع باسمها؟ ولم ينفرط عقد المحتفلين إلا في الساعة السادسة صباحاً. لم يبق أحد سوى ميشلين وأنا. وقفنا وجهاً لوجه. رأيت في عينيها قلقا عندما طرحت علي سؤالاً: هل تعاني من شيء ما؟

حاولت أن أضحك فلم أستطع، أو حتى أن أبتسم. كان وجهي جامداً كالصخر، بلا قسمات ولا ألوان. هززت رأسي نفياً. قالت: هل تريد أن أطلب لك طبيباً؟ هززت لها رأسي أن لا.. ثم قلت لها: أيمكنك أن تذهبي معي إلى البيت؟

ولم اشعر إلا أن وضعت ساعدها تحت كتفي. كنت على وشك الانهيار على ما يبدو. وهكذا تساندنا إلى باب الكافتيريا، ومنها أخذنا سيارة إلى بيتي..

1 / 1 / ... صباحاً.

عندما استيقظت ميشلين في الساعة الحادية عشر كانت قد

مضت ساعتان على استيقاظي. فركت عينيها وهي تنظر إلي، ولا تصدق ما تراه! كنت ممدداً على الأريكة شبه عار. أحدق إلى ما أمامي من المناظر. كان المشهد أكثر من واقعي يمتد خلف النافذة، التفت إلى ميشلين التي قالت: أولاً صباح الخير. ثانياً أني لا أصدق ما أرى..

سألتها: لماذا؟ أجابت: أيمكن أن أراك مستيقظاً قبلي. قلت لها: هذا ما تم على ما يبدو. قالت: إذن، لا بد أن هناك أمراً ما دفعك إلى ذلك؟ هيا.. أخبرني به. قلت لها: أولاً عليك أن تستيقظي بالكامل، أي أن تخرجي من الفراش لكي أستطيع أن أناقشك في الأمر... هزت رأسها وقالت: معك الحق..

وخرجت من الفراش عارية كحورية بيضاء ترتدي ثوباً من الزبد. قالت: ها أنا قد استيقظت؟ قلت لها: اذهبي إلى الحمام ثانياً، وعندما تخرجين سأحدثك عن السبب. قالت: هل شربت قهوتك؟ ابتسمت ساخراً وقلت: تسألينني عن القهوة إن شربتها أم لا؟ اسأليني كم فنجاناً منها شربت منذ استيقاظي قبل ساعتين. قالت: إذن جهز قهوتي حتى أنتهي من حمامي..

وخطت باتجاه الحمام. أما أنا فقلت لها غاضباً بالعربية: أمرك يا بنت الكلب.

التفتت إلي أمام باب الحمام وقالت تسألني: ماذا قلت؟

ضحكت لها وقلت مازحاً: إنها جملة بالعربية تعني، أنك رائعة الجمال. وأنا أحبك.. ضحكت واختفت وراء باب الحمام..

بقيت وحدي وساد الصمت إلا من وشيش وخرخرة ماء الصنبور في الحمام.

عندما وصلت مع ميشلين إلى البيت والساعة تقارب السادسة والنصف لم أستطع أن أنام كما توقعت، لأنني، ما أن وضعت نفسي على الفراش حتى بدأت أفكر وأسأل نفسي عن أسباب عدم مجيء «أبو أحمد» وجماعته إلى الاحتفال برأس السنة؟ سألت، ألأنني أبذر أموالي كما أشار في لقائه معي قبل الاحتفال؟ لماذا رأيت علامات لا أستطيع أن أفسر معناها على وجهه، عندما أخبرته بأني الولد الأصغر لأسرة الحلبي؟ لماذا شعر برعب كما ظهر على وجهه، أو لماذا صدم بما أخبرته.. أيكون السبب لأن أسرتي إحدى أغنى الأسر التي في البلاد؟ ولكن أنا معهم. ثم إني منفي مثلهم، وكل منا من المنفيين طريقة نفي بها إلى هنا أو إلى البلاد والمدن الأوربية الأخرى.. لماذا لم يأتوا ليشاركوا احتفالات رأس السنة؟

وهكذا ظللت ممدداً في الفراش إلى جانب ميشلين الغارقة في النوم. كنت أنظر أمامي إلى النافذة، أحدق عبر زجاجها الشفيف إلى أغصان أشجار السرو المثقلة بكتل الثلج والبخار المتصاعد منها تحت أشعة الشمس الساطعة التي أشرقت بشكل استثنائي كأنها في فصل الصيف.. قلت لنفسي، ليذهبوا إلى الجحيم. ما هي الأمور المصيرية التي تربطني بهم حتى أجهد نفسي في التفكير بهم، وأسأل نفسي عن الأسباب التي لم يأتوا من أجلها إلى احتفال رأس السنة. إنهم مجموعة من الحالمين والواهمين. إنهم أغبياء، فهم في باريس يريدون أن يعملوا معارضة ضد السلطة والحكومة في البلد؟ أي جنون ركبهم؟ ثم إني لم أر أي واحد منهم سوى ساعة أو أكثر بقليل طوال هذه الفترة التي تعرفت فيها إليهم. لم أجد أي واحد منهم ذات يوم غير حليق الذقن، أو ببزة مدعوكة، أو بحذاء يعلوه الغبار، أو بقميص ذي قبة سوداء من الوسخ.... لم أرهم إلا وهم على أفضل صورة من

الأناقة والنظافة.. ثم هل هم حقا عاشوا تلك الحكايات التي سردوها علي ذات يوم؟ أشك بكل كلمة قالوها لي.. إنهم..

وخرجت ميشلين من الحمام وهي تشد منشفة فوق رأسها تخفي شعرها المبلول... سألتني: أيها الكسول أين القهوة؟

أيقظني سؤالها مما كنت فيه من الشرود والارتخاء. حقا أين القهوة؟ قلت سائلا: القهوة؟ آ. آ. آ.. القهوة. وقفزت من مكاني أريد أن أذهب إلى المطبخ لأعد القهوة. ولكنها قالت لي: خل عنك. استمر في استرخائك. أنا سأجهز القهوة.. سألتني: أترغب في فنجان؟ أجبتها: نعم..

وقبل أن أعود إلى مناقشة نفسي، علا صوت ميشلين من المطبخ تسألني، إن كنت قد سعدت بالاحتفال والسهرة؟ قلت لها: نعم.. ما دمت إلى جانبي.. سأكون سعيدا أبدا.. ضحكت بصوت عال وقالت: ولكن رأيي لا يتفق مع رأيك!

سألتها: كيف؟ قالت: لا أستطيع أن أقول عنك لم تكن سعيدا، إنما لاحظت عليك قلقا تحاول أن تخفيه عن الآخرين؟ خوفا لا تريد أن ترتسم علائمه على وجهك.. هذا ما رأيته طوال ساعات الاحتفال. أما السبب فلا أعرفه... تابعت: وأود أن أعرفه منك الآن ونحن نرتشف القهوة معا..

وخرجت تحمل صينية عليها فنجانان من القهوة. وبعض قطع الخبز المحمص وقطعة كبيرة من الزيدة والمرملاد.. سألتني: أترغب في قطعة خبز؟ أجبتها: كلا. سأكتفي بالقهوة..

دهنت ميشلين قطعة الخبز بالزيدة ثم مددت عليها بالسكين

المرملاد. وقالت: ماذا، ألا تريد أن تحدثني عن أسباب قلقك؟

ضحكت لها وحاولت أن أمازحها قائلاً: أتدرين لماذا كنت قلقاً؟ أجابت: نعم. قلت: عندما كنت في بلدي حاولت أكثر من مرة أن أشرب النبيذ الفرنسي الشهير ولكني لم أكن... بالأصح، أرغب في شرائه...

سألتني، لماذا؟ ثم أضافت: كما أعرف أنك من أسرة غنية جداً، لهذا فمهما تكن زجاجة النبيذ غالية الثمن فبإمكانك شراء واحدة...

قلت لها: ليس ثمنها هو السبب في عدم شرائها، إنما اللغة!؟

سألتني باستغراب: اللغة؟ وما دخل اللغة بشرب النبيذ وشراء زجاجة منه؟

قلت لها: له كل العلاقة، لأنني لو اشتريت زجاجة، فكيف لي الحديث معها وأنا لا أعرف اللغة الفرنسية... لهذا كنت قلقاً في الاحتفال يا عزيزتي!

ضحكت ميشلين طويلاً، ولكنها ما لبثت أن قالت: ها أنت تحاول التهرب من الجواب عن سؤالي. ثم أضافت: إن كنت لا تريد فسأكف عن سؤالك..

قلت لها: ميشلين.. أرجو أن تنتهي من الأكل والشرب، لأبلغك، ليس الأسباب، إنما أريد منك أيضاً أن تشاركيني في الأجوبة على الأسئلة التي أطرحها على نفسي منذ ليلة البارحة.

لوت شفتها وقالت: لا بأس، ولكني، اطمئن لن أسرع في الأكل... لأنني لا أريد أن أزعج معدتي من أجلك.. يجب أن أطحن هذا الخبز المحمص جيداً بأسناني قبل أن تتابع معدتي هذا الأمر..

1 / 1 / ... الساعة الحادية عشر صباحاً..

ما تم من الحديث بيني وبين ميشلين أعتقد أنه قد فتح عيني على حقيقة مرّة جداً. وهي، أن الطريقة التي أفكر بها والنظرة التي أنظر بها للأشياء والقضايا الحياتية والفكرية والاجتماعية وحتى الحضارية منها، مختلفة جداً... وجداً مختلفة. لقد وجدت صعوبة كبيرة في تقديم صورة واضحة لميشلين عن سلوك وتصرفات أصحابي. كما أني وجدت صعوبة كبيرة في تفهم ما قالته...

قلت لها أول ما قلت: ما استأجرت كافتيريا «العاصفة الثلجية» إلا من أجل أصحابي هؤلاء المغفلين. أردت أن أرفه عنهم، وأن أعيش لحظات عمري في هذا اليوم بالذات منتشياً وراضياً عن نفسي، على أنني أقوم بفعل يعوضني عن الأفعال التي قاموا بها، وهم هناك، على أرض الوطن...

كانت ميشلين تنظر إلى وجهي باستغراب وأنا أحدثها. كنت أظن بأن سبب نظرتها تلك هو ما كان يلون وجهي من ألوان الغضب والحب والسخرية، وما كان يبسطه من تقاسيم وانقباض أثناء حديثي. ولكني فوجئت عندما عرفت أن سبب نظرتها الاستغرابية كان لمعنى حديثي بالذات.

عندما انتهيت من طرح تساؤلاتي عن أسباب عدم مجيء أصحابي، قالت: لقد قمت بواجبك فدعوتهم، أما أنهم لم يلبوا الدعوة فهذا شأنهم... فلماذا أنت متأثر كل هذا التأثر؟

نظرت إليها طويلاً، حتى أنني عندما فكرت بما قالته لي كاد رأيها أن يقنعني! ولكني قلت لها باحتجاج: آه ميشلين، لا أدري كيف تفكرين؟ ثم حاولت أن أصحح من قولي لكي لا أجرح مشاعرها.

فقلت مضيفاً موضحاً لها: على ما يبدو لم أستطع أن أوضح لك المغزى الخفي لكلامي.. إنها اللغة.. اللغة.. فأنا على ما يبدو لم أجدها تماماً... وضحكت لها، وتابعت: أتعتقدين أنني بحاجة إليّ دروس إضافية على يديك؟ ولكنها لم تضحك. ظلت تنظر إلى باستغراب. قلت بالعربية: بنت الكلب ماذا تظن بي.. عفريت خارج إليها من ألف ليلة، أم جني أهيم فوق رأسها؟ قلت لها: أنا على خلاف رأيك.. أعتقد بأنهم لم يأتوا، لأنني ابن أحد أغنياء بلدي.. وهم منفيون لأسباب سياسية. إنهم ينظرون إلي كأنني أجسد كل ما يحاربونه، من العسف والظلم.. الخ، ولكني أنا مثلهم منفي.. لقد نفاني أبي بالذات، لأنني أحببت فتاة من عامة الناس. لقد وجد أبي في حبي للفتاة عاراً ألحقته باسم العائلة التي بيدها أمور البلد..

ظلت ميشلين تنظر إلي كأنها لم تفهم ما قلته لها. تابعت: هل تعرفين، لو أنهم يفكرون بما خمنته لسبب عدم حضورهم سيكونون في نظري مجرد أغبياء. لا يمكن أن يطلق عليهم المرء لقب متمردين أو ثوار أو معارضين.. لأن معاني هذه الكلمات أعتقد بأنها عظيمة.. فهم لا يستحقون أن يلقبوا بها. إنما يجب أن يلقبوا برؤوس العصافير، وبخاصة عصافير الدوري الغبية..

قاطعتني وقالت: هل تستطيع أن تهدأ قليلاً، وأن تحدثني من غير عصبية. لكي أستطيع أن أشاركك النقاش..

قمت غاضباً وصرخت بها: ماذا تظنين بي؟ ثم تهاويت في مكاني ثانية.

لم تأخذ ميشلين حركاتي العصبية على محمل الجد، ظنت أني قمت بها لأن قدمي قد تخدرتا ليس غير.. فقالت سائلة: أعتقد..

عليك أن تقابلهم أولاً، ثم تسألهم عن أسباب عدم حضورهم؟ أضافت: أعتقد، ستجد في جوابهم الأجوبة عن أسئلتك..

لوحت يدي أمام وجهها وقلت: أنت تنظرين إلى الأمر، وكأن الموعد الذي كان بيننا مجرد موعد عادي.. لا يا ميشلين، الموعد لم يكن عادياً، وعدم مجيئهم جماعة، يعني أن لهم موقفاً.. وواحد من اثنين: إما الموقف مني أنا، وإما من سلوكي الذي اعتبروه أخرق. وفيه شيء من التبذير والتظاهر ليس إلا...

قالت ميشلين: إذن.. لقد حصرت الأجوبة عن أسئلتك.. وهذا يعني أن الأمر ليس رهيباً كما تتصوّر.

كما قلت، شعرت بأننا نحن الاثنين نتكلم بلغتين مختلفتين تماماً لا تقربنا في الفهم إلى جذر المشكلة، إنما تباعدنا في فهم المشكلة واستيعابها. قلت لها: لا بأس. لقد أتعبتك معي.. وهدأ كل واحد منا في مكانه، ما لبث أن استرخى مغمضاً عينيه تحت أشعة الشمس المتسللة إلينا عبر النافذة، أمامنا..

3 / 1 / ...

طوال مساء أمس لم أستطع أن أخط رسالة إلى ...ن/ لقد مزقت أكثر من عشرين ورقة بيضاء بعد كتابة سطر أو سطرين عليها، كنت لا أستطيع التعبير عما أحسه في اليومين الأخيرين، أو بشكل أدق منذ يوم احتفال رأس السنة. ولم أستطيع أن أوضح معاناتي من الخيبة التي حصدتها من تصرف أصحابي في تلك الليلة.

هذه الرسالة التي حاولت كتابتها، برأيي، جاءت بعد فشلي في

الوصول إلى رأي موحد مع ميشلين حول سلوك أصحابي. لم أستطع أن أوضح لها الأذى الذي ألحقوه بي... وهي بدورها لم تفهم أسباب معاناتي. لقد شعرت، كأنها أوحت لي، أن لا حاجة إلى اعتبار الأمر وكأنه مصيبة قد حلت بي. لقد حاولت أن توحي لي أن مثل هذه الأمور تحدث كثيراً. ماذا فيها إذا وعدك بعض الأصحاب للمجيء إليك والسهر معك، ثم نقضوا موعدهم لأسباب ما؟ ثم أضافت: كان من اللباقة بهم أن يهتفوا لك بالهاتف ويعتذروا منك عن عدم مجيئهم..

هكذا ببساطة حلت ميشلين الأمر. واعتبرته منتهياً.

لم أفهم عليها وهي لم تستوعب ما كنت أفكر به وأقول.. إننا، على ما يبدو، عالمان متناقضان. قلت ليلة أمس: ليس لديك سوى ...ن/ هي الوحيدة التي ستفهم معنى خيبتك التي تعاني منها، لن تجد العزاء سوى لديها. اكتب لها رسالة طويلة، اشرح فيها الأذى الذي لحقك على يد أصحابك. لا شك بأنها ستسارع بالكتابة إليك، تقدم لك حلاً ما للمعاناة التي تعاني منها؟ أو ستجد في كلمات رسالتها العزاء الذي لم يقدمه لك أحد...

ولكني -يا للأسف- ظللت ساعات الليل كله أكتب وأمزق وأدعك الأوراق، وما أن أكتب السطر الأول أو الثاني، حتى أشعر بأني لا أقدر على التعبير. أشعر بتفاهة ما أود أن أخبرها به. وما أن أبدأ رسالة جديدة حتى تفتر همتي فأقول، إلى الجحيم أصحابي وتمردهم. ما بي قد انخرطت في صفوفهم كأني جندي تواق إلى السير إلى الموت للثأر من العدو..

ما هم إلا مجموعة لا تعرف إلا الكبرياء الأجوف. اللعنة على

اليوم الذي تعرفت فيه إليهم! ليذهبوا إلى الجحيم..

وأتناول ورقة جديدة أخرى، وأقول لنفسي، يجب أن أكتب رسالة غرامية، خاصة بالحب والأشواق والأحلام والوعود والأماني. يجب أن أخبرها عن دراستي وما وصلت إليه. وعن باريس. وعن...

كل هذا والورقة ما تزال بيضاء، أتخيل ما سأكتبه لـ...ن/ وأنا أرفع رأسي إلى الأعلى أحدق في إطار النافذة العالي، ومنه أحدق في شريط السماء الأسود المطل علي من وراء الزجاج، ما تلبث أن تبرد همتي وتفتر عزيمتي، فأقوم عن طاولتي وأذهب وأجيء في غرفتي وأنا ألعن أشياء غامضة ومجهولة في نفسي.

في صباح اليوم كان لدي موعد مع المشرف الدكتور ريمون بولانجيه.. ولكنني لم أذهب إليه فضلت التسكع بجانب بارك مانسوري الذي يلف حي باريس القديم. لا أعرف ما الأمر الذي دفعني إلى ذلك البارك؟

رحت أراقب مقدمة حذائي وأنا أتسكع. ثم أرفع وجهي إلى الأعلى فأرى ندى الأشجار ملتصقة بالسماء الرمادية. اليوم باريس باردة. يجب أن أجد مقهى لأشرب فيه شراباً ساخناً أدفئ فيه معدتي التي باتت تمغصني من البرد.

ظللت أتسكع حتى ساعة الظهيرة.

10 / 1 / ...

بعد أن غاب عن ذهني طويلاً، عاد اليوم للظهور في نفسي، إنه كافكا، الكاتب التشيكي الذي كتب باللغة الألمانية. لقد تعرفت إليه

عندما كنت في بلدي، وكان ذلك على يد أحد الأصدقاء في المرحلة الإعدادية من دراستنا. جاءني ذات يوم وقال: لقد تعرفت اليوم على كاتب عظيم اسمه كافكا... لقد حدثني عنه كثيراً... وعندما تركني رحت أبحث عن كافكا. في المكتبات، فلم أحصل إلا على رواية واحدة فقط، سميت «المسخ».

عندما انتهيت من قراءة الرواية، وقف شعر رأسي. قلت أيمكن للإنسان أن يتحول إلى صرصار فيهمل لذلك من والديه، أقرب الناس إليه، فيظل يتعذب حتى يموت. ومع موته يرتاح أهله، لأنهم وجدوا فيه العار لمكانة أسرتهم؟ أي ظلم وقسوة هذه.

كان هذا من سنوات.. واليوم عندما زارني أصحابي فيه، لا أدري لماذا تذكرت كافكا هذا، علماً لم أنسه في يوم من الأيام. والدليل، عندما نزلت أرض باريس كان أول عمل قمت به بعد نزولي في الفندق، هو البحث عن مؤلفات كافكا، وكل ما يتعلق به باللغة الفرنسية، برغم أني لم أكن أعرف من اللغة في تلك اللحظة إلا بضع كلمات.

اشتريت المجموعة الكاملة، ووضعتها فوق رأسي في الأمكنة التي نمت فيها... وما ذكرني بكافكا في هذه الساعة.. هو دخول أصحابي عليّ.. تخيل، وأنت جالس إلى طاولة تحاول الدراسة أو الكتابة في وسط الغرفة، فتجد باب غرفتك قد انفتح فجأة، ودخل عليك مجموعة من الناس الذين لا تعرفهم، أو لا تتذكرهم. ماذا سيكون موقفك؟

هذه الطريقة التي دخلوا بها عليّ ذكرتني بأجواء كافكا التي رسمها في أعماله الأدبية، وفي الرسائل التي كتبها إلى كثير من معارفه..

دخلوا عليّ واحداً بعد الآخر كعصابة حسبت حسابها لكل شيء يمكن أن يفاجئها... ولكن الأمر الذي أراحني وجعلني أصمت ولا أفتح فمي وأصرخ بأعلى صوتي من الخوف: حرامية. هو دخول «أبو أحمد» أولاً.. ثم تبعه البقية..

دخلوا بصمت وحذر وهم يلتفتون حولهم، كأنهم يتأملون الشقة التي أسكن. ثم توزعوا على شكل دائرة مفتوحة في ربعها فقط، حيث كنت أقف. التفتوا إلي وقالوا بأدب: أتسمح لنا بالجلوس؟ قلت لهم: تفضلوا.

شعرت، عندما نطقت بالكلمة كأنني منوّم مغناطيسياً، لا أقدر على الرفض، لا أقدر إلا على تلبية ما يأمرونني به. شعرت بشيء من الغضب في داخلي. كيف يسمحون لأنفسهم باقتحام البيت علي بهذه الطريقة؟ ما لبثت أن سألت نفسي، كيف دخلوا؟ من فتح لهم الباب؟ أيمكن أن أكون قد نسيت الباب مفتوحاً؟ هذا محال! فأنا عدت إلى البيت منذ أكثر من ساعة، لا يمكن أن أكون قد نسيت الباب مفتوحاً طوال هذا الزمن؟ ولكن كيف دخلوا..؟

حاولت أن ابتسم لهم عندما نظرت إليهم. كانوا خمسة. ثلاثة منهم أعرفهم، أما الباقيان فهما مجهولان بالنسبة لي..

فرك «أبو أحمد» أصابعه ببعضها وقال لي: نحن أسفون للإزعاج، ولكن قد جئنا لنقدم لك اعتذارنا عن عدم مجيئنا إلى الاحتفال برأس السنة الذي دعوتنا إليه...

ابتسم «أبو أحمد» بعد أن ظهرت عليه حالة من الارتباك. ثم قال: لقد عرفنا من بعض الساهرين أن الاحتفال كان رائعاً، وقد قضيتم وقتاً ممتعاً. ثم أضاف تمنينا أن نكون في الاحتفال ولكن الأمر

لم يكن بيدنا، لقد... طرأ علينا طارئ، فاضطررنا إلى عدم المجيء.. نرجو أن تقبل اعتذارنا..

وقبل أن يسمعوا مني جواباً بالقبول أو الرفض قال «محمود»: شقتك جميلة.. وهي مريحة على ما يبدو..

هززت له رأسي موافقاً. تابع «محمود»: أتسكنها وحدك، أم معك..

قاطعته بحدة: وحدي.. أسكنها وحدي..

قال: هذا يعني أنك تدفع مبلغاً كبيراً من المال لأجرتها؟

لم أعلق أو أجب على كلامه الفضولي المخيف. سألتهم: هل يمكنني أن أعرف السبب في عدم قدومكم للاحتفال.؟

ضحك أبو زهير وقال: لقد أخبرناك.. لقد طرأ كما قلنا طارئ في آخر لحظة.

قلت بشيء من الانفعال الغاضب: أما كان يمكنكم أن تتصلوا بي بالهاتف، أو على الأقل أن تقدموا اعتذاركم هذا في اليوم الثاني.. على الأقل من باب اللياقة..

أجابني «أبو أحمد»: معك كامل الحق.. ولقد حاولنا. ولكنا لم نستطع أن نتصل بك. لقد اضطررنا للسفر إلى ليون لأمر عاجل جداً.. وقد عدنا منها البارحة مساءً. وأضاف ضاحكاً: وها نحن لديك كما ترى..

هززت رأسي وقلت: على كل أشكر لكم مجيئكم. ثم سألتهم: كيف عرفتم أني في البيت؟

أجاب أبو زهير بحماسة: لقد جئنا منذ ساعتين فأخبرنا

الحارس بأنك ستعود بعد ساعة كما أخبرته أنت.

أجبت: صح. لقد توقعت مجيء بعض الأصحاب -غيركم- لهذا أخبرت حارس المبنى.

سألني أحد لمجهولين: هل نعرفهم؟

قلت له: لا أعتقد. لقد جاؤوا إلى باريس منذ ثلاثة أيام، وقد حملوا رسالة لي من والدي.. وسيغادرون بعد غد..

ما لبث المجهول أن قدم نفسه إلي: أنا أعتذر لعدم تقديم نفسي.. أبو محمد. وابتسم بحرج وقال: إنه اللقب فقط..

هززت رأسي وقلت: مفهوم.

ثم أشار أبو محمد إلى المجهول الآخر: عصام..

سألتهم وأنا أقطب ما بين حاجبي: ولكن قولوا لي. كيف دخلتم علي؟

التفتوا بعضهم إلى بعض، ثم قال أبو زهير: طبعاً من الباب. كان مفتوحاً.. فلم نقرع الجرس، وقفنا في العتبة.. وعندما رأيناك دخلنا..

ابتسمت لهم ساخراً: ماذا؟ هل كان الباب مفتوحاً؟

أجابوا بتردد: نعم. لقد وجدناه موارياً..

نظرت إلى وجوههم: هذا غير صحيح.. لقد أغلقت الباب بنفسي..

ضحك «أبو زهير» وقال: على ما يبدو أننا سحرة، قرأنا أمام الباب تعويذة فانفتح من تلقاء نفسه..

قلت له بشيء من الغضب الممزوج بالسخرية: أرجو.. الوقت ليس وقت مزاح..

قال أبو زهير: ولكننا لا نمزح.. لقد.. حقاً وجدنا الباب موارباً.. حتى إننا استغربنا الأمر تماماً..

قلت لنفسي، ماذا، أيكون حقاً قد نسيته مفتوحاً؟ اللعنة! ولم أستطع أن أعيد ترتيب وقائع لحظات عودتي إلى البيت حتى لحظة حضورهم. قلت لهم: ليكن.. قد أكون نسيت الباب مفتوحاً؟؟

قالوا: حتماً نسيته، وإلا.. من يكون قد فتحه..

قلت لهم: المهم.. أهلاً وسهلاً بكم.. هل يمكنني أن أفيدكم بشيء؟

حرك أبو زهير ساعديه أمام وجهي وقال: لا.. يبدو أنك منزعج تماماً منا.. لقد اعتذرنا منك يا أخي.. أقسم لك طرأ طارئ فمنعنا من المجيء كما أخبرناك.. وإلا ما منعنا أنفسنا من المتعة التي حدثنا عنها بعض الذين كانوا في الاحتفال؟

سألني أبو محمد وهو يبتسم: هل حقاً ما سمعته عنك من الأصدقاء، بأنك منفي ولكن لسبب طريف وهو عدم موافقة والدك على زواجك من فتاة من العامة؟

شعرت بغضب من قوله هذا. فرددت عليه: أولاً الأمر ليس طريفاً كما تتصور.. قد يبدو طريفاً بالنسبة إليك وليس بالنسبة إليّ.. قد أعتبر سبب نفيك أيضاً طريفاً إن كان بمثل أسباب نفي أبو زهير وعصام ومحمود.. الخ.

فاض الدم من وجنتي أبو محمد وبلع ريقه بصعوبة لأنني رأيت

كيف صعدت الجوزة في حنجرته وهبطت بصعوبة.. وقال: يمكن أن يكون لكل منا أسبابه للنفي الذي يعاني منه.. وتابع في اتجاه آخر: المهم.. لقد جئناك يا صاحبي لأمور أخرى تماماً.. فهل تسمح لنا في مناقشتك ومحاورتك فيها؟

استغربت سؤاله فقلت لنفسي: أي أمور يريد مناقشتها معي وأنا لا أعرفه بعد.. قلت سائلاً: لم أفهم ماذا تقصد؟

ابتسم «أبو زهير» وقال: أنت تعرف أوضاعنا.. وقد سألتنا ذات يوم إن كان بإمكانك مساعدتنا في بعض الأمور؟

عرفت الآن ماذا يريدون. فقلت لهم: لا بأس إن كان الأمر هكذا..

قام «أبو أحمد» وشد على عضدي وقال: قد يطول الأمر يا صاحبي.. فهل تسمح لي أن أذهب إلى المطبخ لأحضر لنا بعض الشاي؟

قلت له: آ... بالطبع..

ومضى إلى المطبخ. أما أبو محمد فقال: أرجو المعذرة. قد تبدو أسئلتي غير لبقة ولكن لا بد لي من طرحها عليك، فأرجو أن تتحملنا إن كانت رغبة العمل معنا ما زالت موجودة لديك؟

سألته: أي عمل تقصد. أنا أخبرتكم بتقديم مساعدة لكم، أما الأعمال فأنا لا أعرف طبيعتها ابتسم أبو محمد وقال: لا بأس.. أعتقد أن النتيجة ليست مختلفة كثيراً... لتكن كما أسميتها مساعدة..

قلت: لا بأس..

سألني: قبل أن أسألك أي سؤال، قل لنا، كيف تريد

مساعدتنا.. أقصد ماذا تقصد بمساعدتنا؟

نظرت إليه طويلاً، لأنني لم أفهم ماذا أراد من سؤاله بالضبط.. المساعدة تعني مساعدة أحد ما بعمل قد يكون له طابع مادي أو روحي.. فابتسم أبو محمد في وجهي عندما لاحظ غموض نظرتي إليه. فعرف بأني لم أفهم ما سألني. فقال: هل تستطيع أن تقوم بمساعدتنا، مثلاً إن طلبنا منك أن تقوم بتوزيع بعض المناشير السياسية؟

سألته، يمكن، ولكن ليس قبل أن أعرف ماذا كتب فيها. وما هي الأفكار التي تحملها المناشير التي تشير إليها!

قال: مثال.. أن يكون في المنشور أفكار ضد السلطة في بلدنا..

لم أعرف بماذا أجيب، لأنني وجدت أن الأمر خطير.. فأنا ليس لدي أي كره للسلطة.. لأنه لا علاقة لي بها.. أنا لا أحب والدي لأنه حرمني من فتاتي.. أما السلطة فما علاقتي بأمر شتمها؟ ولكني برغم هذا قلت بتردد: نعم..

أطال أبو محمد نظره إلي وقال: أخبرني.. هل حقاً أنك ابن لعائلة الحلبي الشهيرة؟

هززت رأسي موافقاً. قال: هذا يعني أنك ابن للسلطة التي وافقت على مهاجمتها؟

لم أنطق. ظللت صامتاً أنظر إلى الوجوه الجامدة أمامي.. سألني عصام، وكان هذا يتكلم لأول مرة: قل لي، كيف وصل والدك إلى أن يكون صاحب أكبر رأسمال - وهو رأسمال متعدد متشعب- في البلد.. وكما أعرف أنه كان فقيراً معدماً ذات يوم!

أجبته: لا أعرف.. لم أسأله، ولكنه أي والدي، لم ينكر فقره أبداً، حتى أنه حدثني أكثر من مرة عن الجوع الذي كان يحس به لأنه كان لا يملك مالاً لشراء رغيف من الخبز..ضحك «أبو أحمد» وقال: أما اليوم فهو الذي يقرر من سيصل إلى «البرلمان»، ومن سيكون وزيراً، وحتى رئيساً للوزراء..

غلى الغضب في نفسي فقلت له: هذا غير صحيح. لو كان أبي لديه هذه القوة لأصبح هو رئيساً للوزراء؟

سألني عصام: قل لنا، لماذا أنت ضد والدك، ألأنه رفض زواجك من فتاتك؟

أجبته ببرود: نعم.. سألني: طيب لنفرض يا صاحبي، أرسل وراءك وقال أنا موافق على زواجك من الفتاة التي تحب.. هل ستقف إلى جانبه، ضدنا..

شعرت بلطمة على خدي.. لأن الجواب على مثل هذا السؤال لم أكن مهيأ له لأنني لم أفكر في هذه القضية أبداً.. قلت لنفسي، اللعنة! ما لهؤلاء الحمقى يكيلون لي الكلمات، ماذا يريدون مني، أن أساعدهم؟ لا بأس فقد أخبرتهم.. أما أن يحاولون استجوابي فهذا ما لا أقبل به أبداً.. ماذا يعتقدون أنفسهم، هل هم رجال أمن؟ قلت لهم وأنا أحاول أن أخفي غضبي ونزقي: قولوا لي ماذا تريدون مني.. هل تطلبون مساعدتي لكم أم إحراجي بأسئلة أنا غير مهيأ للإجابة عنها..

نظر الخمسة بعضهم إلى بعض، ما لبث أن وقف أبو زهير وقال: نحن لا نريد إحراجك.. ولكننا نريد أن نعرف مع من نتعاون.. نحن كما تعرف منفيون سياسيون.. نعمل ضد السلطة في بلدنا.. ومع

وجود، أرجو المعذرة، لأني لا أتهمك، جاسوس ما في قلب الحركة. قد تودي بحياتنا إلى الموت وبتظيمها إلى الدمار.. وهناك كثيرون من المنفيين المعارضين قد اغتيلوا في بعض المدن الأوروبية، وباريس واحدة منها.. لذا يجب أن نأخذ حذرنا مع أي إنسان نتعامل معه.. مرة أخرى أقول لك أرجو المعذرة. نحن لا نظن بك الظنون. ولكن علينا أن نكون على بينة من أمرك..

سألتهم بعد طول صمت باستخفاف: وماذا وجدتم في.. جاسوس أم..

اندفع «أبو أحمد» إلي بقوة وقال: وهو يضمني إلى صدره: إياك أن تظن أننا نظن بك يا صاحبي.. نحن أصدقاء.. لو كنا نظن بك لما جئناك اليوم. من أجل أن نتباحث عن كيفية مساعدتك لنا..

هززت لهم رأسي وقلت: لا بأس.. لا بأس.

25 / 1 / ... صباحاً - باريس.

عندما استيقظت في السابعة صباحاً، شككت إن كنت قد نمت دقيقة واحدة طوال ليلة أمس. لا أذكر أني غفوت لحظة واحدة، ظلّت عيناي مفتوحتين على ضوء المصابيح الثلاثة الموزعة على السقف والحائط الغربي، وفي زاوية التقاء الجدار الشمالي بالشرقي. كنت أفكر بكل شيء، وأيضاً لا أفكر بشيء محدد في آن واحد، كنت أبدأ بالتفكير بشيء معين، محدد، بشخص مثل والدي. أو أحاول أن أعالج بنفسي قضية معينة، مثال: الحوار الذي تم بيني وبين أصحابي المنفيين، ولكني قبل أن أبدأ كنت أنسى نفسي، أشرد بذهني بعيداً عن القضية التي كانت قد أخذت مجامع فكري منذ لحظات ، أنسى

أصحابي وكل الحوار الذي درا بيني وبينهم، أشرد أو أرحل بعيداً عن الأرض التي التقيت فوقها مع أصحابي. ارحل إلى أرض لينة، طرية، رجراجة، أخاف من الغوص فيها والغرق حتى الاختناق... فأحاول أن أتشبث بشيء ما، لأستند إليه وأرفع عليه جذعي إلى الأعلى، لأخرج مما كنت أغوص فيه، أو أكاد أن أغوص فيه.. أخرج من تلك الأرض إلى أرض أخرى أكثر - هكذا كنت أظن - صلابة وثباتاً تحت قدمي..

أرى نفسي أمام ميشلين، أسير معها، تخبرني عن رحلتها التي تزمع القيام بها في الصيف القادم... كانت تضحك وتقول ستكون بلدك إحدى الدول التي سأمر بها زائرة لمدة أسبوع.. تضحك ميشلين تقول: هكذا أخطط... ولكن ميشلين تختفي من أما م عيني، تغيب وراء ستائر هفهافة وتضيع .. أجد نفسي ألاحقها. أمد يدي أريد الإمساك لها، ولكني أقبض على فراغ، وتظل الستائر تهفهف أمام عيني، أتقدم خطوة، فتخرج من بين ثناياها فتاتي... وعلى وجهها بسمة حزن، تقف أمامي، تسد علي الطريق، هكذا أظن، أشعر كأنها تؤنبني، تقول لي بعينيها، هل نسيتني حتى تود أن تلاحق هذه الفتاة الأجنبية؟ أطرق وجهي إلى الأرض، فأراها رخوة، طينية، ذات فقاعات، أرى قدمي تغوران في طياتها اللدنة، أرفع نظري إلى فتاتي فلا أجد أحداً أمامي... لا أجد سوى الفراغ، حتى الستائر الهفهافة قد اختفت، وتلاشت، لم يبق أمامي سوى ضوء يؤذي العينين - أطبق أجفاني بشدة على عيني ولكن الضوء الشديد الباهر يتسلل عبرها إلى الداخل فيحيل كل شيء أمامي إلى بياض! لون أبيض موشى بصفرة شاحبة كأنها صفرة الموت... أفتح عيني، أقوم وأطفئ الضوء في كل المصابيح، أبقى مع الظلمة الموشاة بأنوار مذهبة تتسلل إلى غرفتي عبر النوافذ المسحوبة الستائر.. أحدق عبر زجاج النوافذ إلى

الليل المخيم في الخارج، أتساءل، أي ليل هذا؟ أحاول أن أناقش أمر هذا الليل في نفسي، أن أصفه بأنه جميل، منعش، أسأل، ماذا لو خرجت إليه، فتحت ساعدي على اتساعهما وتوجهت لأضمه إلى صدري؟ نعم، قلت لنفسي، هذا ما يجب أن أقوم به. يجب أن أخرج من حالة الكآبة التي أغرقت نفسي فيها، وأضيف مصححاً. أو بالأحرى الحالة المائعة، الضائعة التي أغرقني فيها أصحابي المنفيون، نعم، يجب أن أخرج إلى الليل لأنعش صدري وقلبي وأكحل عيني بمرأى باريس في الليل، وفي هذا الجو البارد، القاسي المنعش...عندما وصلت إلى هذا الرأي، خرجت فعلاً من البيت إلى أحضان الليل، ورحت أطوف باريس لأجد نفسي في منطقة بارك ما نسوري الذي يلف حي باريس القديم؟ ويا للمصادفة غير المتوقعة: لقد وجدت أبي أمام البوابة المسماة بالليل، واقفاً ينتظرني لكي نتابع معاً الطريق إلى داخل الحي القديم.سأحاول أن أسجل هنا، كل ما كان مني، وما كان من أبي.. وكل الحوار الذي دار بيننا، سأحاول أن أنقل من ذاكرتي كل ما حدث بيني وبين والدي في الليلة الفائتة.. ومن جهة أخرى، لقد أعطتني الحوادث التي تمت مدخلاً مثيراً لروايتي التي سأبدأ في كتابتها.وللحقيقة أقول، أن أحد أهم أسباب تأجيل كتابة روايتي، هو عدم وجود المدخل الذي يمكنني أن أسير فيه بعد ذلك في الكتابة.. عدم وجود مدخل مقنع لنفسي، ولذوقي الأدبي والجمالي الذي يمكنني أن أستند إليه في كتابة روايتي.. وما كان في ليلتي الماضية هو المدخل المقنع للبدء في الكتابة...

هذا الأمر سأدعه الآن إلى وقت آخر أكون فيه أكثر تفرغاً للكتابة.. لأن البداية، كما يقولون، هي أصعب ساعات العمل بالنسبة إلى الكاتب - أي كاتب كان. سأعود الآن إلى تسجيل ما كان بيني وبين

أبي في الليلة الماضية...

1/25 .. مساء – باريس

كما يقولون، فجأة، وجدت نفسي في منطقة بارك مانسورى الذي يلف منطقة حي باريس القديم، وقفت على الرصيف أمام «بوابة الليل» التفت حولي وأنا في استغراب من أمري، أسأل نفسي، من قادني إلى هنا، أي أمر دفعني لأجد نفسي في هذا المكان؟ حاولت أن أتذكر ولكني لم أستطع ذلك، لم أستطع أن أتذكر شيئاً ينفعني، حاولت أن ابرر لنفسي أن سبب وجودي هنا هو رغبتي الشديدة في مشاهدة ميشلين، فأنا لم أرها منذ أربعة أيام، فقد اختفت دون أن تخبرني بأنها ستغيب عني هذا العدد من الأيام، قلت لنفسي، هو الشوق الذي دفعك إلى هنا، فما عليك إلا أن تدلف عبر بوابة الليل لتذهب في بعض الأزقة الضيقة التي تذكرك ببعض أحياء مدينتي القديمة، لتجد نفسك أمام باب منزل ميشلين.. فهي ووالدها من محبي العيش والحياة في الأحياء القديمة على خلاف والدتها التي كانت ترغب بشدة في الخروج من هذا القلب القديم، كما وصفته ذات يوم، والنزول إلى أحياء باريس الحديثة، حيث الهواء والضوء وألوان الشجر. كان والد ميشلين يبتسم ويعلق ولكن عالمك هذا بلا شجر.. فهو مجرد أشياء مادية ملموسة تعطب في النفس الإنسانية الخيال..

لا أريد هنا أن أنقل شجارات أسرة ميشلين إلى هذه الصفحات...

نعم – كما يقولون – وجدت نفسي فجأة أمام «بوابة الليل» التي

هي إحدى البوابات التي يمكن للمرء أن يدلف عبرها إلى حي باريس القديم... وكم كان الأمر التالي غريباً، ألا وهو أن أجد نفسي أمام أبي... يسد علي مدخل البوابة بقامته الطويلة النحيلة. وابتسامته الماكرة التي تخفي وراءها حياته.. التفت حولي وأنا لا أصدق ما رأيت. سألت نفسي، ماذا، هل أنا في مدينتي أم في باريس؟ لأني وجدت كل ما كان حولي، يشير إلى أني في باريس. إذن، من أين جاء أبي إلى هنا؟ لقد اختلط علي الأمر. فتقدمت إلى الأمام وأنا على اقتناع بأني توهمت صورة والدي ليس إلا.. وعزوت الأمر إلى أنني في الليلة الماضية فكرت بأبي طويلاً، لذا رأيته الآن.. وما رأيته هو من نسج خيالي.. ولكني عندما وصلت إليه، رأيت يده يدفعها باتجاهي حتى اصطدمت بأصابعه المفردة، وقال لي: ماذا بك يا بني، ألم تعد ترى أمامك، أم ماذا؟

رفعت رأسي إليه باستغراب، وقلت بصوت خافت، أو صدر عني صوت خافت: أبي! ابتسم لي وقال: نعم. أنا أبوك.. لا تستغرب وجودي هنا! ثم أضاف: أنت تعرف، أنا أيضاً عشت في باريس عدة سنوات، أي أني أعرفها، وخاصة باريس القديمة أكثر منك.. ثم طلب مني قائلاً: هيا اتبعني..

فما كان مني إلا أن انصعت لأمره، فسرت وراءه.

والآن، وفي أول مرة، وأنا أسير في أزقة الحي القديم، أدقق بالتفاصيل التي أمر بها، وفي أول مرة أنظر إلى أرض الزقاق وأعاين الطريقة التي رصف بها الزقاق بالحجارة البازلتية السوداء بإتقان، وأتأمل الأبواب الكبيرة المغلقة بإحكام.. الأبواب الثقيلة المصفحة بصفائح حديدية رقيقة، مطرزة برسوم متنوعة من المسامير البارزة الرؤوس، ذكرتني تماماً بأبواب بيوت حارات مدينتي القديمة.. كما

أني لأول مرة أرفع رأسي إلى الأعلى وأتأمل السماء التي كانت تظهر لي بين فينة وأخرى، مرة ضيقة أشبه بشريط أسود وأحياناً أخرى بمساحات عريضة زرقاء.

لم أستغرب وأنا أتابع والدي السائر أمامي بثقة في قلب هذا الحي القديم من أحياء باريس، لم أستغرب أبداً كيف أرى تلوين السماء بين فينة وأخرى من اللون الأسود علامة أن الزمن يشير إلى ليل حالك، وبين اللون الأزرق السماوي علامة أن الوقت يدل على نهار ساطع.

كنت مشدوداً إلى والدي السائر أمامي، كنت أتساءل، إلى أين يقودني؟ كيف جاء إلى باريس؟ ما لبثت تساءلت قائلاً: يا الله! أيمكن أن يكون هذا الرجل النحيل هو والدك؟ انه لا يتعدى الخامسة والثلاثين من العمر ، أيمكن أن يتزوج وينجب وهو في العاشرة من العمر.. أنا أذكر أن والدي في الستين من العمر، أو ما حول هذا الرقم من السنين، قد ينقص سنة أو اثنين أو يزيد مثلهما.. أما أن يكون هذا الرجل ذو الخامسة والثلاثين من عمره، والدي، فأمر لا يصدق!

وهنا، وقفت برهة. تذكرت بصورة فجائية حكاية كان قد حكاها لي جدي وأنا طفل، وهي أن جنياً اتخذ من صورة العنزة شكلاً له وراح يثغو في منعطف الزقاق إلى أن جاءه أحد المارة فحملها إلى المنزل، ولكن الرجل اكتشف في الطريق أن العنزة مجرد جني.. فبسمل واستعان فاختفت العنزة عن الوجود. قلت لنفسي، ماذا لو كان هذا الشخص هو جني أيضاً؟

وقفت مرغماً، وبسملت بصوت عال.. توقف والدي عن السير والتفت إلي وعلى وجهه بسمة خبيثة ماكرة. قال: هيا، لا تخف، فأنا

لست جنياً، أنا والدك.. هيا اتبعني إلى البيت!

هتفت ما بيني وبين نفسي: إلى البيت؟ أي بيت يقصد، فأنا لا أسكن في باريس القديمة، ولا يمكن له، أقصد والدي، أن يكون قد سكنها؟ إذن أي بيت يقصد؟

كان والدي كل ما يقطع مائة متر أو أكثر بقليل يلتفت إليّ ليتيقّن إن كنت أتابعه في خطوه أم لا... ولم أعرف إن كنت قد سرت وراءه طويلاً أم لا عندما وجدته يقف أمام أحد الأبواب الثقيلة القديمة المصنوعة من الخشب السميك المغطى بصفائح الحديد الرقيقة، والمزينة بالمسامير.. ما لبث أن انتظرني إلى أن وصلت إليه، فمد يده ودفع الباب الثقيل فانفتح ببطء على مدخل ضيق، مظلم، قال والدي:

اتبعني..

عندما انتهيت من المدخل المعتم وجدت نفسي في صحن الدار، كان مغموراً بالضوء والألوان. شعرت أول الأمر كأنني في تلك الدار التي قضيت فيها فصلاً من طفولتي، وأنا ما بين السادسة والثامنة من العمر. تأملت تلك العرائش الخضر والأزهار الحمر والصفر والزرق الملتوية الأعناق، وبعضها الآخر منتصبة الرقاب بشكل ملفت للنظر، نظرت إلى النافورة الكبيرة وهي تسكب ماء شفافاً كالبلور في فصل الصيف، أدرت نظري في سماء الدار، كانت كتلك الدور العربية تماماً، حتى أني شككت في أن أكون في باريس، كلا، والله، ما أنا إلا في مدينتي...

كان والدي قد صعد الدرجتين الحجريتين، ومشى فوق أرض الليوان ليجلس مستريحاً بعد ذلك على إحدى الأرائك الضخمة المزينة بمساند طرية للمرافق... ثم راح ينتظر أن أنتهي من دهشتي التي

وجدني فيها، وأفيق من غفوتي التي أخذتني الحيرة والسؤال بين يديها.

نظرت إلى والدي والدهشة ما تزال معقودة على وجهي، ابتسم أبي وأشار بيده أن آتي إليه وأجلس أمامه على أريكة واسعة الصدر، فعلت ذلك وقلبي يدق دقاً.. ساد صمت مطبق فيما بيننا، أبي ببسمته الساخرة الخبيثة، وأنا بنظرتي الذاهلة الشاردة، ما لبث أن حرك يده بحركة دائرية مشيراً إلى جو الدار، كأنه يسألني، ما رأيك؟ لم أنطق له بجواب. ظللت على صمتي منتظراً منه أن يفتح الحديث معي، لأعرف ماذا يريد مني بعد أن جرني من أنفي إلى هذه الدار الغريبة في قلب باريس القديمة؟ سألني : هل تشك بالمكان الذي تجد نفسك فيه الآن أقصد، هل تظن نفسك في حلم، أو ما شابه ذلك؟

أجبته: كلا.. إنما أتساءل عن الغاية التي قدتني من أجلها إلى هنا؟

ابتسم: غاية بسيطة.. ما لبث أن تابع بعد صمت قصير: أريد أن أقدم لك بعض المعلومات، وأن أشير إلى عدم رضاي عن بعض الجوانب من حياتك التي تحياها هنا..

ابتسمت ساخراً وأنا أضع ساقي اليمنى فوق اليسرى ممسداً قماش بنطالي بحركة نزقة، وقلت له: ألى هنا لاحقني رجالك.. ليراقبوا ما أقوم به؟

قال بانزعاج: لا تتهمني، أنا أدرى بمصلحتك. ثم سألني: ولكن قل لي، هل شعرت في يوم من الأيام بهم؟ أقصد هل أزعجوك بشيء؟

أجبته: أبداً... حتى أنني لم أشعر بهم.. ليس هذا فقط، إنما فاجأتني بقولك هذا الآن... رغم أني تساءلت بيني وبين نفسي أكثر

من مرة إن كنت سترسل ورائي من يراقبني، هنا في باريس، كما فعلت في مدينتي؟

قال: لست أنت الوحيد المراقب من أولادي، كلا، كلكم، أنت وبقية أخوتك، مراقبون، وكما قلت لك، هذا لمصلحتكم...

هززت رأسي ولم أعلق.

طال الصمت بيننا، التفت مرة أخرى أدير نظري في سماء الدار الزرقاء الواسعة. أما والدي فكان يطقطق بسبحته بين أصابعه.. ما لبث أن سألني: ألن تسألني ما هي الأمور التي أنا غير راض عنها من حياتك، التي تقوم بها، هنا، في باريس؟

نظرت إليه وقلت: ليست بي ضرورة لأسألك، برغم أني أخمنها تماما..

هز رأسه وقال: لا بأس.. أود أن أقدم لك نصائحي.. برغم أني أعرف أنك لن تعمل بها، كحالك عندما كنت في الوطن. ولكن يا بني، أتمنى -توقف عن الكلام قليلا ثم تابع- أتمنى لو سمعت ما سأقوله لك، لعل وعسى تجد فيما أقوله بعض ما يفيدك، وأنت هنا في غربتك؟ أعتقد بأن بعض أصحابك المنفيين قد سألك، من أين لوالدك هذا المال الطائل، الهائل الذي لا تحرقه النيران؟

نظرت إلى والدي وأنا أقول لنفسي، ماذا؟ هل كان جالسا معنا حتى عرف بما دار بيني وبين أصحابي من حوار؟

تابع والدي: سأخبرك كيف جمعت المال، قد تفيدك الحكاية في الجواب، إن تجدد طرح السؤال عن أسباب عدم موافقتي على زواجك من تلك الفتاة التي أخبرتني بأنها دنياك وآخرتك! ولكن لا بأس، اعلم يا بني، عندما كنت شابا، في مثل سنك اليوم كنت ابنا

لوالد فقير، معدم.. أحببت فتاة لرجل غني، طافح الثراء، كانت الفتاة تسكن مع أسرتها في الحارة -كنا في السابق يا بني، الأغنياء والفقراء يسكنون في حارة واحدة، وليس كما هو اليوم، أن يسكن الأغنياء أحياء خاصة بهم والفقراء في أحيائهم الخاصة. كانت مدينتنا صغيرة موزعة على عدة أحياء متصلة وملتصقة بعضها ببعض، لو صعدت إلى سطح دار منها لرأيت سطوح بيوت آخر المدينة.. تابع والدي: لم أجرؤ على خطبتها، فأنا مجرد ابن لإسكاف فقير، أما هي فابنة أحد أشهر تجار الصوف وأغناهم.. وعندما فعلت، تحت إلحاح الفتاة، قابلني والدها بشيء من الهزء والسخرية وقال لي: اذهب.. لو أنني لا أعرف والدك الدرويش الطيب لسلخت جلدك لتجرئك على الدخول علينا لطلب يد ابنتنا.. تابع والدي: لقد حفر موقفهم هذا في نفسي حفراً وكوى قلبي كيّاً، فأقسمت بيني وبين نفسي أن أعمل حتى أصبح غنياً، لا بل أغنى منهم.. ولكن الكلام سهل يا بني، هكذا اكتشفت بعد حين، أما الفعل وجمع المال فهو الأمر الصعب وشبه المستحيل.. ولكني قلت سأبحث عن جميع الطرق التي تؤدي إلى الغنى، ثم أختار أسرعها لأصعد دون توقف حتى لو جمعت تلالاً من الذهب.. ولكن كيف؟ ما هي الطرق التي يمكنني أن أسلكها لأصبح غنياً في بضعة سنوات.

في الأيام التي أتحدث عنها يا بني، لم تكن الأعمال التجارية كما هي عليها اليوم، كانت في تلك الأيام، تعد على الأصابع، وأهمها تجارة الجملة لدول الخليج.. ولكن -تابع والدي- من أين لي المال ليس لتجارة الجملة، إنما حتى لتجارة المفرق، أو حتى لامتلاك «بسطة» صغيرة، يمكنني أن أجلس إليها من الصباح حتى المساء تكون زادي في الحلم من أنني سأكبر بواسطة هذه «البسطة» لأصبح مالكاً لدكان صغيرة، ثم لخان وبعد ذلك لعدة خانات حتى أصبح ملكاً متوجاً لنوع

معين من التجارة، القطن، أو الصوف، أو الزيوت.. الخ.

ظللت خلال ثلاثة أشهر أفكر دون أن أصل إلى نتيجة... حتى وصلت إلى يأس تام.. تابع والدي: وذات يوم رأيت أحد أصحابي. كان غاضباً. فسألته عن غضبه؟ فأجاب: لقد باتت الدنيا حقيرة، ماتت فيها الثقة والشرف وجميع الأخلاق والقيم.. سألته ماذا تعني بكلامك هذا؟ فأجاب: إن أحد أصحابه أخذ بضاعة من عنده فأعطاه بثمنها بعض السندات، وها هو الشهر العاشر مضى على موعد التسديد دون أن يدفع قرش واحد له... ما لبث أن قال له، اذهب إلى جهنم.. ليس لك قرشاً واحداً في ذمتي.. اذهب واشرب البحر.. قلت لصاحبي هذا: بسيطة، ضع سنداتك في التنفيذ في دار القضاء لتحصل على حقك من صاحبك الناكر للجميل هذا.. لوح صاحبي يده في وجهي وقال: لن أحصل على قرش واحد قبل أن تمضي عدة سنوات نقضيها أنا وصاحبي في المحاكم. سألته. والحل.. إذن؟ لوى رقبته وقال، لا حل لي سوى بيعها.. آه لو أحد من يشتريها مني بنصف ثمنها.. سألته، كم تبلغ قيمتها؟ فقال: مئة ألف ليرة.. سألته، أتبيعها بخمسين ألف؟ أجابني، نعم. لو وجدت من يشتريها؟ سألته أتبيعها لي؟ نظر إلي، ثم سألني باستخفاف، أنت! قلت له: نعم.. ولكني لن أدفع لك قرشاً قبل أن أحصل من صاحبك على المال؟

ظل صامتاً كأنه لا يصدق ما قلته. ما لبث أن قال بتردد، ولكن كيف ستحصل منه على المبلغ؟ قلت له. دعني أتصرف. سألني: ولكن كيف؟ قلت له، سأجلب لصاحبك أناساً لا يخافون الله...

صافحني صاحبي وقال، على بركة الله.. بعتك..

تابع والدي: وهكذا يا ولدي أخذت السندات ووثائق بيعها لي وذهبت إلى صديق لي كان يعمل في الأجهزة الأمنية -وكان من

البلطجية- حكيت له الحكاية، هز رأسه وقال، ماذا تريد مني أن أفعل؟ قلت له، لقد اشتريت السندات بخمس وسبعين ألف ليرة -طبعاً تقصدت زيادة مبلغ شراء السندات من أجل أن يكون المبلغ الحقيقي المتبقي شراكة فيما بيننا- أما ثمنها الحقيقي فمئة ألف ليرة.. ما رأيك أن نتقاسم الربح، عشرة آلاف لك وخمسة عشر ألف لي؟ قال صاحبي بعد تفكير: دع الأمر لي حتى الصباح.. سأخبرك في الغد.. وفي الصباح وافق صاحبي، فما كان منه إلا أن ذهب في منتصف الليل مع عنصرين آخرين من أصحابه واقتادوا الرجل إلى السجن، ألقوه في غرفة منفردة عشرة أيام دون أن يعرف السبب.. بعد ذلك طلبوه للتحقيق وسألوه عن السندات فأقر بها. ما لبث أن تعهد بالدفع لصاحبها المبلغ بمجرد أن يخرج من السجن. ولكن صديقي قال له: لن تخرج قبل أن تسدّد ما عليك من ديون...

وهكذا يا بني، خلال مدة عشرين يوماً أصبحت مالكاً لأربعين ألف من الليرات، كانت النواة الأولى في جمع ثروتي..

ابتسمت له وقلت: هذا يعني أن حياتك كانت مغامرة مثيرة؟

قال: نعم.. قبل أن تستقر بي الحال.

سألته: وهل تزوجت فتاتك بعد ذلك؟ قال: أبداً!!

سألته باستغراب: لماذا؟

فقال: لأن والدها، كما أخبرتك، كان أحد أغنياء مدينتنا... وكان، من أجل أن أرتفع، علي أن أسحق أمثاله لأصعد.. فالزواج منها يعني مهادنة والدها، ولكني لم أرغب في مهادنة أحد. لأنني كنت أريد الصعود بأسرع وقت ممكن..

وابتسمت ساخراً وسألته: وحبك للفتاة أين ذهبت به؟

ابتسم أبي ساخراً وقال: الحب! ماذا تقصد بكلمة الحب هذه يا بني؟ وأضاف: لا شيء اسمه الحب، إنه وهم نحاول أن نجعل منه حقيقة.. ما نسميه حبا يا بني سيموت بعد شهور من زواجنا ممن نحب. لن يكون حباً بعد ذلك.. إنما علاقة أزلية بين الذكر والأنثى. هي حاجة الذكر إلى المرأة من أجل متعته وإنجاب الأولاد له.. أما غير ذلك فهو مجرد وهم لا غير.. هذه مفاهيمي وقناعاتي التي توصلت إليها بعد عمر مديد عشت -قد لا توافقني عليها- ولكني على قناعة، عندما تعيش بقدر ما عشت ستجد نفسك على قناعاتي إن لم تكن أكثر تزمتاً منها...

قلت له: وقد يكون الأمر مغايراً، أي قد أتشبث بقناعاتي وأعتبرها هي الجديرة في هذه الحياة بأن يؤمن بها الإنسان..

ابتسم والدي ولم يعلق سوى بهز رأسه..

سألته بعد ذلك: هل سُعدت في حياتك يا أبي بعد ذلك؟ أقصد بعد أن تخليت عن حبك لتلك الفتاة. ابتسم في وجهي وقال: لو قلت لك نعم لما صدقتني.. لأن مفهوم السعادة يختلف من إنسان لآخر يا بني.. لذا كل إنسان يرى سعادته في أمر من الأمور. فمن الصعب الاتفاق على أن السعادة هي هذا الأمر أو ذاك..

قلت له: ولكن قل لي، هل استطعت أن تحب أمي كما أحببت تلك الفتاة التي لم تتزوجها؟

أجابني: بعد الحكاية التي حكيتها لك، تغير موقفي من الحب كما قلت لك.

سألته: ألهذا لم توافق على زواجي من فتاتي التي أحب؟

ظل أبي صامتاً كأنه يبحث في نفسه عن جواب.. ما لبث أن

قال: ليس هذا تماماً.. إنما عدم موافقتي يعود لأمور أخرى.. إنما..

وسكت. طقطق أصابعه ببعضها وقال: لقد أخبرتك بمفهومي عن الحب. لقد كنت وما زلت مؤمناً به، وهو أن الحب سيموت قبل أن تلد لك من تحبها الولد الأول.. سألته: ولكن لماذا لم تتركني أصل إلى هذا الاقتناع من خلال تجربتي؟

أجابني: لو فعلت لأضعت عمرك.. وأنا لا أريد لأولادي أن يضيعوا أعمارهم..

قلت له: ولكنها حياتي وأنا حر فيها!

ابتسم ساخراً وقال: كلا.. ليست حياتك طالما أنا من يدفع لك المال لتعيش...

سألته: لو طلبت منك أن تكف عن صرف المال علي، فهل تتركني أحيا حياتي التي أريد؟

لم يتوقع والدي هذا السؤال مني. نظر إلي طويلاً، ما لبث أن قام وراح يدور على أرضية الليوان المغطاة بسجادة خمرية اللون مزينة برسوم صغيرة برتقالية، وزهور بنفسجية فاتحة اللون.. ما لبث أن توقف عن السير والتفت إلي، وعلى وجهه بسمة غامضة وقال: ليس بهذه السهولة يا صاحبي. ثم تابع: أو بالأحرى، يمكن لنا، نحن الاثنين، أن نناقش هذا الأمر، ولكن ليس الآن، في وقت آخر، ليس قبل أن أسألك بعض الأسئلة.. الآن، وبعضها في وقت آخر..

سألته: ولماذا التأجيل ما دام الأمر الذي يجب أن نناقشه يهمنا نحن الاثنين؟

هز رأسه وقال: أرجو أن تعفيني من الجواب عن سؤالك هذا. لنعد إلى اقتراحي الذي اقترحته عليك.. ما رأيك؟

رفعت يدي عالياً. ثم هويت بهما أمامي معبّراً بذلك عن عجزي

وقلت: لا بأس.. تفضل اطرح ما تريد من الأسئلة..

ابتسم والدي بسمة فيها غرور المنتصر وقال: دائماً كنت أقول عنك لأشقائك أنك ذكي.. ثم صمت وهو يضيق ما بين حاجبيه وسأل: أخبرني، كيف تعرفت إلى أصحابك المنفيين الذين يحرضونك عليّ؟؟؟

سألته: وهل تهمك معرفة الطريقة التي تم بها تعارفنا أنا وأصحابي؟

هز رأسه موافقاً.. وددت معاتبته فقلت له: ولكن أليس غريباً أن تسألني مثل هذا السؤال بعد أن نشرت رجالك حولي يحصون علي أدق تصرفاتي، ويسمعون الحوار ما بيني وبين أصحابي.. فتأتي لتسألني عن طريقة معرفتي بأصحابي المنفيين؟

هز رأسه راضياً عن تساؤلاتي وقال: كلامك منطقي يا بني.. ولكني أريد أن أقول لك أمراً، فأنا لم أحطك بأحد قبل وصول بعض الأخبار إلي، من أنك تحيط نفسك ببعض المنفيين، كما أنك تقدم لهم بعض المعونات المالية، وتذهب إلى بعض نشاطاتهم السياسية أيضاً..

سألته: هل هذا يعني أنك لا تعرف كيف تعرفت إلى أصحابي؟

هز رأسه مجيباً: نعم.. لا أعرف..

سألته: وماذا يفيدك هذا الأمر؟

قال: فضول.. مجرد فضول..

سألته: هل حقاً كما يقولون، أنه يمكنك أن تعين رئيس الوزراء...

انفجر ضاحكاً وهو يقول: يا لهم من أغبياء. ثم سألني: هل حقاً يقولون عني مثل هذا الكلام؟. ثم سأل: وهل هناك أغبياء من أمثالهم يصدقون أقوالهم هذه؟

قلت لوالدي: نعم..

قال أبي: وأنت، هل تصدق هذه الأقاويل؟

أجبته: بصراحة، في البداية لم أصدق ولكنني الآن بدأت أصدق..

ضحك من جديد ضحكة صاخبة وقال: هذا يعني أنك أصبحت غبياً مثلهم..

وفجأة قطع والدي ضحكه الصاخب ونظر إلي ملياً ثم قال: دعك مما يقولون عني.. أخبرني؟.. هيا.. كيف تعرفت إليهم..

ابتسمت له وقلت: مثل كل الطلاب في جامعات العالم.. وخاصة، عندما يكون هناك مجموعة منهم في بلاد الغربة.. فمن الطبيعي أن يسعى أبناء البلد الواحد بعضهم إلى بعض..

لوى والدي رأسه وقال: لا أقصد مثل هذا التعارف اليومي العادي الذي يتم في كل تجمعات العالم. أقصد الناحية السياسية، كيف أخبروك بأعمالهم ونشاطهم، كيف جروك إلى عالمهم..

قاطعت والدي قائلاً: لم يجرني أحد منهم. أنا ذهبت إليهم بنفسي، لأنني وجدت أن ما لحق بهم من ظلم يشبه ما لحق بي أيضاً.. وعلى يديك بالأخص..

قال والدي: ألا ترى أنك تظلمني؟

هززت له رأسي نفياً: كلا لم أظلمك..

وساد صمت بيننا. ما لبث أن قال: ما زال رأسك يابساً يا بني. أشعر كأن لك ثأراً عندي تريد أن تأخذه مني.. برغم أني أسعى لخيرك وصلاحك.

قلت له: هل سنعود إلى المواعظ ثانية؟

هز رأسه وقال: كلا.. لن نعود إليها.. علينا أن ننتهي منها. نعم.. الأفضل أن ننتهي منها ونكف عن إلقائها.. لا بأس.. صمت برهة ثم قال: أريد أن أطلب منك طلباً!

قلت له: تفضل..

تردد في الكلام طويلاً، ولكنه ما لبث أن قام ودخل إلى غرفة جانبية عبر باب لا يرى.. أو باب يختفي وراء جدار رقيق كأنه غطاء للجدار الأساسي السميك.. ثم عاد يحمل بين يديه ظرفاً أبيض اللون. وضعه ما بيننا فوق الطاولة. وقال: هل تعرف ماذا يحوي هذا الظرف بداخله؟

لويت له شفتي علامة الرفض، وأنا أنظر إلى الظرف كأنني أحاول التذكر أين رأيت هذا الظرف الأبيض من قبل!

سألني والدي: هل تتذكر يوم طلبت منك أن تسمح لي بقراءة ما كنت تكتبه ذات يوم؟ أعتقد بأنك كنت في السنة الأخيرة من دراستك الجامعية؟

تذكرت الظرف. تابع والدي: من المؤسف رفضت ذلك.. ولكنني وجدت الظرف بعد سفرك إلى هنا باريس. فرفعته بين وثائقي دون أن أسمح لنفسي بقراءة الأوراق التي بداخل الظرف.. ثم تابع موضحاً: وعلى ما أعتقد بأنها مجرد يوميات خاصة بك.

تناولت الظرف عن الطاولة، ثم أخرجت من داخله الأوراق. إنها قصصي التي كنت قد كتبتها وأنا في مدينتي...

رفعت نظري إلى والدي وقلت له: إنها قصص.. وليست يوميات خاصة.. قصص حاولت أن أقلد فيها الكاتب كافكا..

نظر والدي إلي وعلى وجهه ترتسم علامات غامضة، تنبئ بأنه لم يعرف ما قلته. فقال: أتقول عنها قصص! أليست يوميات خاصة؟

قلت له: نعم.. سألني: ولكن لماذا لم تدعني أن أقرأها عندما طلبت منك ذلك؟

قلت له: لعناد ما ركبني.. كنت أريد أن أرفض لك طلبات مثلما رفضت أنت لي طلب زواجي من فتاتي..

سألني: والآن.. هل يمكنني أن أقرأ ما فيها؟

نظرت إليه غير مصدق من أنه لم يقرأها.. فسألته: أحقاً لم تقرأها؟

هز رأسه مؤكداً على أنه لم يقرأها..

فما كان مني إلا أن انفجرت بالضحك، استغرب هو لذلك، تركني حتى أنهي ضحكي، الصاخب وقال: لماذا تضحك.. ثم أضاف: هل تعني بأني كذبت عليك.. نعم حقاً أنا لم أقرأها، لقد اعتبرتها أوراقاً خاصة.. فمثل هذه الأمور، أعتبرها أموراً مقدسة. يجب أن لا يطلع المرء عليها.. إنها أسرار الإنسان الخاصة به..

سألته قائلاً: أمرك غريب يا والدي.. أنت الذي لم تترك لي مكاناً أذهب إليه إلا ورافقتني عن بعد أكثر من شخص يتجسس علي، حتى هنا في باريس، وباعتراف من لسانك، أن هناك من يراقب تحركي ويرسل تقاريراً بذلك إليك.. فتأتي لتقول لي بأنك لم تقرأ هذه الأوراق التي طلبت أنت بنفسك ذات يوم مني قراءتها.. أيعقل هذا يا والدي؟

انفجر في وجهي قائلاً: ماذا تظن بي.. وحش، همجي! نعم.. لقد وضعت مراقبين عليك لأعرف منهم أين تذهب ومع من تلتقي.. ماذا تخطط مع الآخرين، أصحابك المنفيين.. أما فيما يتعلق بحياتك الشخصية فلا شأن لي بها، ولا أريد أن أعرف عنها شيئاً.. إنها من المقدسات.. هذا ما أعتبره أنا... لأن لكل منا هذا العالم الشخصي

الذي يجب أن لا يعرف عنه أي شخص آخر إن لم يسمح له صاحب العلاقة بالذات.. هل فهمت الآن لماذا لم أقرأ أوراقك هذه؟

وأشار بإصبعه إلى الظرف المرمي فوق الطاولة..

قلت له: أمرك غريب يا والدي.. ثم تابعت: لا بأس. خذها واقرأها.. لدي أكثر من نسخة منها. كنت أود نشرها ذات يوم، ولكني عدلت عن ذلك..

سألني: لماذا؟ أليست جيدة؟

قلت له: لا أعرف! فهذا الأمر، أقصد أمر التقييم منوط بالنقاد وليس بالكتاب..

تناول والدي الظرف الأبيض وسحب منه الأوراق. سألته: ماذا، أتريد الآن قراءتها؟ أجابني: نعم. ثم تابع: قم تجول في أرجاء الدار حتى أنتهي من قراءة أوراقك هذه.. لأنه لدي مفاجأة لك!

نظرت إليه باستغراب وسألته: مفاجأة! من أي نوع؟

أجابني: اذهب وتجول في الحوش حتى أنتهي من قراءة هذه الأوراق.

ابتسمت له وقمت أتجول في الدار كما طلب مني.

25 / 1 / ... مساءً - باريس

عندما عدت إلى الليوان، رأيت والدي جالساً وهو شاخص العينين، موجهاً نظره باتجاه الظرف الأبيض الملقى فوق الطاولة، ترددت قليلاً في تقدمي إليه، أحاول أن أخمن أسباب جلسته تلك.

تقدمت إلى الأمام وجلست على الكرسي بحركة ثقيلة وأنا أنظر إليه بعينين جامدتين. أتساءل: ما به؟

بقينا على هذه الحال مدة طويلة، والصمت المنذر يخيم فوق رأسينا. كنت قد خمنت أن والدي قد انتهى من قراءة القصص، ولكن لم أكن أعتقد أبداً بأنه يمكن أن يجيد قراءة ما بين السطور، لأنه لو قرأ السطور فقط لما حصل على شيء، لوجد في الكلام الذي قرأه ثرثرة لا غير.. وهكذا استغربت صمت والدي..

كنت أنتظر منه أن يبدأني بالحديث... وهذا ما كان. فقال: لم أكن أتوقع يا بني أن تكرهني كل هذا الكره الذي وجدته في قصصك! وأن تنظر إلى الشبان هذه النظرة... نظرة... لا أعرف كيف أصفها...

ثم تابع بعد أن تنهد: أعرف أني ظلمتك ذات يوم، ولكني حاولت بعد ذلك أن أعوضك عن كل الظلم الذي ألحقته بك. أما أنت.. فلم تحاول أن تعوضني عن شيء. ظللت ذاك الإنسان القاسي، العنيد الذي لا يجد في رأي الآخرين أية قيمة يمكن أن يحترمها المرء.. والأنكى من هذا يا بني، أنك لا تتعب من الحديث عن الديمقراطية والظلم والإرهاب.. أتذكر أنك قلت لي ذات يوم، إنني أكبر إرهابي في العالم، لأنني هددتك من عاقبة التفكير في تلك الفتاة؟ هل تذكر قولك هذا؟

هززت رأسي مجيباً: نعم.. ولم أنسه، ولن أنساه..

ابتسم والدي وعلق: وها أنت تطالبني أن أكون ديمقراطياً معك في القصص؟

قلت له: لم أتوقع منك أن تستشف من القصص الرأي الذي

كونته، ليس عنك كشخص يا أبي، إنما عن النظام الذي كما قال أصحابي المنفيون، عنه: أنت عموده الفقري.

سألني باستخفاف: لماذا لم تتوقع ذلك؟ هل تظن بي غبياً لا يفهم بالإشارة؟ سارعت إلى نفي رأيه بحق نفسه: حاشى أن أفكر في هذا يا والدي. إنما أقصد لم أرك في يوم من الأيام تقرأ رواية أو قصة أو ديوان شعر.. لذا استبعدت الأمر الذي أخبرتك به..

قال أبي: ربما.. لو أنك لم تكتب عن بعض المواقف والحوارات التي كانت بيننا... ربما لما توصلت إلى فهم جوانب كثيرة من قصصك... ولكني ما زلت أتذكر زيارتي لك في المشفى أنا وأمك وأخوتك.. وأيضاً أتذكر الحوار الذي دار بيني وبينك حول إمكانية استثمار أرض المقابر في إعمارها.. هذا إلى جانب كثير من الأحداث الأخرى التي وظفتها في القصص..

ثم سألني فجأة: أخبرني من يكون كافكا هذا؟

ابتسمت له وقلت: كاتب تشيكي كتب باللغة الألمانية..

هز والدي رأسه هزات فيها أسى وحزن مريران ثم قال: والآن يا بني.. ما أريده منك أن تبتعد عن أصحابك المنفيين، وذلك لخيرك وصالحك.. لأنهم يلعبون بالنار.. وهذه النار ستحرقك معهم.. واعلم يا بني، عندما ستنشب النار في البلاد لن أقف وأصحابي الأغنياء كما تقولون عنا، مكتوفي الأيدي، علينا أن نسارع إلى إطفائها وأن نقدم الذين أشعلوها حطباً لها.. بعد أن يحاكَموا على الأصول.. وهذه المحاكم يا بني لن تكون كالمحاكم التي أقمتها في قصصك..

عاد الصمت يخيم علينا. ما لبث والدي أن ابتسم وقال: لم تسألني عن المفاجأة التي أخبرتك عنها؟

ابتسمت له بسخرية وقلت: أعتقد أن أية مفاجأة سيخبو ألقها أمام المفاجأة التي قدمتها لي في كلامك منذ حين!

قال والدي: ما قلته ليس مفاجأة ولا ما يحزنون. إنما هو تحذير لصالحك.. أرجو أن تلتفت إلى دراستك وتهتم بها. لتعود إلينا في أقرب فرصة (دكتورا) لأفخر بك أمام أصحابي.. أما أصحابك فدعهم وشأنهم، لأن النيران التي يحاولون إشعالها ستحرقهم قبل أن تصل شرارة واحدة منها إلينا.. إنهم صبية لا غير..

قلت لوالدي: أما أنا فأرى فيهم رجالاً واعين لقضايا شعبهم وبلدهم.. ابتسم أبي ساخراً وقال: ونحن، ألسنا واعين أيضاً، لقضايا بلدنا وشعبنا؟

أجبته بشيء من الحدة: أنت وأصحابك واعون لقضاياكم فقط..

وبعد صمت طويل قال بعجز وبرود: على ما يبدو لن تتغير كما كنت أتوقع قبل إرسالك إلى باريس.. لم أعرف أن تلك الفتاة لها هذا التأثير القوي فيك حتى سلبتك عقلك.. بحيث لم تعد تعرف كيف تميز الأمور بجدية..

ثم قطع كلامه، وتابعه في اتجاه آخر: كم تمنيت لو تعرفت إليها. لو رأيتها.. من أجل أن أعرف الأسباب التي من أجلها سلبت لبك.. ثم قال مازحاً: هل هي جميلة لهذا الحد حتى لا تستطيع نسيانها.. ونسيان ما لقنتك إياه من أفكار أصحابك المنفيين؟

ابتسمت بسخرية: لم تلقني الفتاة أية أفكار. إنها فتاة بسيطة لا غير..

سألني أبي: وما تقوله في نهاية قصتك (الرابعة والريع) أليس هو من وحيها.

هززت له رأسي نفياً..

عاد الصخب مرة أخرى يخيم علينا.. شعرت أنه يريد القيام والرحيل، ولكنه لا يريد أن يرحل خائباً لأنه لم يستطع أن يقنعني بالأمور التي جاء من أجلها.. فابتسم وقال: هل ترى هذه الدار؟ وأدار يده أمام وجهه كأنه بذلك يشير إلى الحوش والغرف الموزعة على أطرافها في دورين. تابع: لقد بحثت طويلاً في باريس القديمة عن دار شبيهة بتلك الدار القديمة التي ولدت فيها.. طبعاً بعد أن أجريت عليها بعض التعديلات.. أعتقد بأنك تذكرها. لقد ولدت فيها وربيت حتى بلغت السابعة، أليس كذلك..

سألته باستغراب: هل حقاً ما تقول؟

أجابني: نعم.. ألم تتساءل من أين لي هذه الدار التي قدتك إليها؟

ضحكت وقلت: هل تعلم يا أبي، أنا ما زلت أعتقد بأني في حلم.. أي أن كل ما شاهدته وما دار بيني وبينك من كلام هو في الحلم. وأني لن ألبث أن أفتح عيني لأرى نفسي ممدداً فوق فراشي، في شقتي...

نظر والدي إلي ببلاهة، ثم ما لبث أن انفجر بضحكة قوية: أي جنون هذا الذي تقوله.. عن أي حلم تتحدث؟.

ثم دس يده في جيب معطفه وأخرج مفتاحاً وقدمه إليّ وقال: إليك مفتاح الدار. أنا أعرف أنك تحب العزلة والعيش في الأدوار العربية الواسعة الضائعة بين الأشجار والزهور والنباتات ونوافير الماء.. إليك هذا العالم.. من أجلك فقط اشتريت هذه الدار.. صحيح أنا أيضاً أحب هذه الأجواء.. ولكن لم يبق في العمر بقية يا بني..

سنة، سنتان... وتتطفئ ذبالة الشمعة المتبقية من عمري.. أما أنت فالمستقبل أمامك واسع عريض..

وقام والدي فجأة وهو يتابع: سأذهب. أرجو أن لا تخيب ظني بك.. أن تصلني أخبار طيبة من أصحابي الذين زرعتهم حولك..

ومضى أبي عبر الليوان وهو يتخطى الأشجار باتجاه الباب الذي تعلوه قنطرة حجرية ضخمة. ثم اختفى عن عيني..

15 / 3 / ... صباحاً – باريس

مضى على آخر كلمة كتبتها في هذه اليوميات شهران بالتمام والكمال. لا أعرف إن كنت خلال أيامهما، أتهرب من الكتابة؟ أم أنه لم يكن لديّ شيء أقوله وأكتبه.. شعرت في بعض الأيام، أنه كان عليّ أن أفكر بجدية بما قاله لي والدي في لقائي الأخير معه.. أنا الذي – حتى هذه اللحظة– اعتبرت أن ما كان بيني وبينه، كان في الحلم ولم يكن أبداً في اليقظة. برغم أني قمت ذات يوم منذ ثلاثة أسابيع بزيارة البيت الذي تم فيه اللقاء بيني وبين أبي. ومع هذا اعتبرت أمر اللقاء هو من أمور الحياة الخيالية التي يعيشها الإنسان خارج وعيه في بعض الأحيان!

لم أستطع الجواب عن السؤال الذي طرحته على نفسي: هل عدم متابعتي لكتابة هذه اليوميات هو نوع من التهرب، أم أنه ليس لديّ ما أكتبه.. علماً أنه مر علي خلال الشهرين الماضيين كثير من الأمور التي اعتبرتها مصيرية.. مثلاً: لقاءاتي التي تكررت مع أصحابي المنفيين برغم معاملتهم الحذرة معي، لقد سخرت منهم في نفسي، قلت: ماذا يعتقدون بي، جاسوس؟ لا بأس إن اعتقدوا كذلك،

ولكنهم سيأتي يوم يثبت لهم عكس ذلك.. عندها سأعرف كيف أقتص منهم. أقسم بربي سأجعل منهم كلاباً تلعق حذائي.. سيكون انتقامي منهم لا يعرف الرحمة! وعلى مستوى الدراسة جرت تطورات كثيرة، فقد شعرت بميل قاتل إلى تحضير الأطروحة حول أثر الأفكار الاشتراكية في الأدب ما بين عقدي الخمسينيات والستينيات.. أما علاقتي بميشلين فقد أخذت طابع اللامبالاة من قبلي. لقد حاولت ميشلين أن تعرف أسباب ذلك. ولكنها لم تصل إلى نتيجة، لأنني، بنفسي، كنت لا أعرف أسباب ذلك. لقد شعرت كأنني أغوص في لجة متحركة. غير ثابتة، فلا أستطيع الثبات والتحكم بخطواتي. شعرت كأني في حال من انعدام الوزن.. فأقل حركة مني تدفعني إلى كل الاتجاهات دون أن يكون لي رغبة في التوجه إلى هذا الاتجاه أو ذاك.. ودون أن أستطيع الثبات والسيطرة على حركتي..

• وهكذا ظللت أعيش مدة شهرين كاملين طافياً على وجه الحياة. تتقاذفني الأيام إلى هنا وهنالك..

وخلال هذه المدة ظللت أفكر بكتابة روايتي. كنت قد قررت أن أسميها «زهور كافكا» بالمناسبة، كنت خلال هذين الشهرين قد قرأت كل ما كتبه «كافكا» مترجماً إلى العربية،.. كنت بعد أن أنتهي من قراءة عمل ما لـ«كافكا» أستلقي على ظهري، محدقاً إلى السقف.. أحاول أن أجد في السقف المداخل التي ستقودني إلى عالم روايتي التي أزعم كتابتها..

هذا وقد وجدت عشرات المداخل الفرعية، علاوة على المدخل الرئيسي. كنت أتصور نفسي ذاهباً إلى ميشلين في حي باريس القديم.. وما أن أصل إلى مدخل «بوابة الليل» حتى أجد أمامي تمثالاً من البرونز، فأقف وأتساءل، تمثال من هذا الذي أقاموه؟ ثم لماذا

أقاموه في هذه البوابة الضيقة؟ وما الحكمة من أن يدير التمثال ظهره إلى الذين يدخلون إلى حي باريس القديم، وهو المدخل الرئيسي له، عبر «بوابة الليل»؟..

.. وهكذا، وأنا في حالة من الشرود والتساؤل، أتقدم باتجاه البوابة لأعبرها إلى ميشلين، رأيت التمثال يدير وجهه، وينظر إليَّ. فأقف بحذائه وأنا لا أصدق ما أراه! كيف يمكن لتمثال أن يتحرك. أتساءل، هل أنا أمام تمثال أم أمام رجل حي يمتطي منصة؟ أجيب، إن كنت أمام رجل حي فلماذا يقف على هذه المنصة الرخامية؟ ثم أخمن، إن صاحب التمثال طويل القامة، يبلغ أكثر من ثلاثة أمتار. وهذا أمر عجيب، لأنه لحد علمي، لم يولد إنسان بعد بهذا الطول! ينزل الرجل التمثال عن قاعدته وينتظرني حتى أصل إليه، فيمد يده باتجاهي ويقول، لقد انتظرتك طويلاً. فأنا منذ شهرين منتصب القامة أمام هذه البوابة، ولقد عانيت كثيراً من عبث الناس، وخاصة الأطفال منهم. ثم يسألني لماذا تأخرت؟

وقفت أنظر إليه. ثم سألته باستغراب، ولكني أعتقد، لم يكن بيني وبينك أي موعد؟ ثم.. أنا ذاهب إلى صديقتي ميشلين؟ أما ما تخبرني عنه فأمره غريب عليّ تماماً..

ابتسم التمثال الرجل وقال لي، على ما يبدو، إن تأثير لقائك مع والدك ما زال مسيطراً عليك؟ ثم أضاف: ولكن لا بأس.. هيا.. لقد تأخرنا..

رافقته بالمسير دون أن أسأله، إلى أين؟ ظننت أنه مثلي يسير إلى ميشلين.. ولكني ما لبثت أن وقفت بعد خطوتي الثالثة. سألته وأنا أحدق إلى وجهه، أعتقد بأني أعرفك، ولكني لا أذكر أين لقيتك؟

ابتسم لي وقال: أنا أسف لم أقدم لك نفسي! ثم تابع، أنا فرانز كافكا.. وقفت مشدوهاً، لم أصدق ما قاله التمثال الرجل. ولكني أمعنت نظري في وجهه.. نعم إنه كافكا.. أو رجلاً يشبهه كثيراً قد انتحل شخصيته.. شعرت باضطراب في نفسي، أردت أن أقول له، ولكن كافكا قد توفي منذ أكثر من خمس وستين سنة.. ثم إن كافكا لا يعرف العربية التي تحدثني بها..

ابتسم كافكا التمثال وقال، أرجو أن تعذرني إن طلبت منك أن لا تحدثني عن الموت، أما بشأن العربية التي أحدثك بها. أريد أن أخبرك بأني تعلمتها في الآونة الأخيرة.. كنت مضطراً إلى تعلمها لأن هناك بعض النقاد العرب اتهموني في حمى محاربتهم للصهيونية بأني صهيوني وأدبي يخدم أيديولوجيتها.. لذا تعلمت العربية لأحدثهم عكس ما ذهبوا إليه.. فأنا لا أنكر أني يهودي الديانة.. برغم أن علاقتي بالدين والرب لم تكن في يوم من الأيام على وفاق.. أما اتهامي بالصهيونية فهو باطل..

تابع كافكا التمثال، كما تعرف، إن ما كتبته نشره بعد موتي، صاحبي ماكس.. وأنت تعرف أيضاً، أني لم أنشر في حياتي إلا أقل القليل مما كتبته.. لو كنت كذلك، وكما تعرف بأنها عقيدة، لعملت على نشر نتاجي وأنا حي، وليس الإبقاء عليه في الأدراج، غير منقح، وغير مكتمل وناقص الفصول والأبواب..

وقفت أحدق في التمثال الرجل، وأنا لا أصدق ما تراه عيناي..

15 / 3 / ... مساءً - باريس

هذه البداية، أو هذه الأفكار حاولت أن تكون مقدمة، أو مدخلاً

لروايتي الكافكاوية. ولكني ظللت عاجزاً عن تنفيذ ذلك. كانت أمور أخرى تشغلني، أو بالأحرى كنت عاجزاً عن التفكير في شيء، كنت أعيش خلال الشهرين الماضيين كما قلت في حالة من انعدام الوزن..

واليوم، عندما حطت قدماي على الأرض، وشعرت بصلابتها تحتهما، وأنه بإمكاني أن أسير عليها، لجأت إلى كتابة هذه السطور لأخرج من حالتي التي لم أحسد نفسي عليها..

21 / 5 / ....

مرة أخرى انقطعت عن الكتابة، وخلال هذه المدة كنت أعيش أحداث روايتي التي اختمرت فكرتها تماماً في خيالي، لم يبق لي سوى أن أنقلها إلى الورق... ولكني لا أعرف لماذا لم أفعل ذلك حتى الآن. كنت في كل ليلة أستقدم «كافكا» إلى غرفتي، وأحياناً وهي كثيرة، كنت أذهب إليه بنفسي. وكان قد طلب مني أن أسمح له أن يسكن في حي باريس القديم، في الدار التي قابلت فيها والدي، نظراً لغلاء السكن في الفنادق. فوافقت على ذلك. قال لي ضاحكاً، لقد أحببت هذه الدار الواسعة.. فأنا، كما تعرف، أحب العزلة لأخلو مع نفسي، من جهة أقرأ كتبي التي نشرها صديقي ماكس بعد موتي.. ومن جهة أخرى، لدي رغبة كبيرة في كتابة بعض القصص، أو حتى رواية جديدة!

صمت «كافكا» ما لبث أن قال سائلاً، ربما تسألني إن كنت غاضباً على صاحبي ماكس أم لا.. لأنه لم ينفذ وصيتي التي تتعلق بجانب ما كتبته من قصص وروايات ويوميات، وأيضاً رسائلي.. فهو لم يحرقها، إنما قام بنشرها على الملأ.. تابع «كافكا»، عندما تناولت كتبي المنشورة فرحت كثيراً كولد صغير، لأنني بصراحة، لم أكن راغباً

في حرق ما كتبت، لأن ما كتبته كان المعادل للحياة بالنسبة إليّ. لو كنت أرغب في حرق تلك الأوراق. لحرقتها بنفسي، ولكني لم أكن أجرؤ على فعل ذلك. كنت أريد أن يقوم غيري به... لذا أوكلت المهمة إلى صديقي ماكس برود.. ولا أكتمك سراً بأني اليوم سعيد جداً لأنه لم يحرق ما كتبت. وسعيد لدرجة أكبر لأنه قام بنشر نتاجي الذي أخفقتُ في نشره وأنا على قيد الحياة..

هذا ما قاله لي «كافكا» ونحن الاثنين جالسان في الدار العربية الواسعة. أما عندما كنت أعود إلى منزلي فكنت أستمر في محاورة «كافكا»، كنت أفترض وجوده أمامي.... فأظل إلى ساعة الصباح الأولى ساهراً معه، أناقشه في جملة من القضايا. وبخاصة بعض الجوانب من القصص التي كتبها في الآونة الأخيرة. لقد قرأها عليّ بنفسه. قلت له مازحاً، ماذا هل ستطلب مني أن أحرق ما ستكتبه بعد أن مات صاحبك ماكس منذ زمن طويل، أم ستحاول أن تنشره بنفسك.. ابتسم وقال لي: أنا لا أعتبر ما كتبته من القصص إلا تمارين على الكتابة بعد انقطاعي الطويل عن عالم الإبداع والكتابة...

أما عندما قرأ قصصي فقد ضحك وقال لي، هل تعلم، هناك جانب معين من حياتك يشبه حياتي؟ لذا يا صاحبي أشعر بالشفقة تجاهك. لأنني أرى عذاباً أبدياً ستعاني منه في مستقبل أيامك القادمة!

قلت له وأنا أناوله فنجان القهوة وقطعة البسكويت، هل تعلم عندما قرأت أعمالك، وجدت نفسي فيها. شعرت كأنك كنت تعيش في داخلي.. قبل أن أعرفك كنت أشعر بالحياة كأنها حلم يتكرر فيه الأسى والألم بطريقة عبثية لا يحكمها قانون أو ضرورة...

هز «كافكا» رأسه وقال، كنت على هذا الرأي أيضاً قبل موتي..

ثم قال لي متابعاً، أنت لا تعرف مرض السل. قد تكون قرأت عنه، ولكنك لم تعشه. إنه مرض مجاني لا يعطيك أية قيمة وأنت تعاني من براثنه، تشعر بخوف ورعب من الآخرين الذين يحيطون بك. تتمنى أن تطردهم من حولك. لتصفو إلى نفسك. وتستذكر حياتك الماضية، وتعد عدد الأيام الباقية لك. كان مرضاً كريهاً.. مقرفاً..

وأشاح «كافكا» وجهه عني وابتعد متوجهاً إلى قلب العريشة الغائصة بنور الشمس. ظللت وحدي أنتظر في كل ليلة عودة «كافكا» إلي.. وعندما كان يتأخر، كنت أقوم وأهرع إليه.. فأجده في الدار العربية الواسعة يبتسم لي ويقول، هل هربت من جديد من ظل والدك؟

قلت له، آه لو كان ظله يطل علي، لعرفت كيف أمزقه إرباً، ولكنه لا يفعل، يعرف كيف يختبئ، وكيف يرسل لك رجالاً يراقبونك، يحصون حركاتك دون أن تشعر بهم. وهكذا تمضي بي الأيام والليالي.

كنت كلما أحاول أن أجلس إلى طاولتي لأدون يومياتي، أخفق، لا أعرف ماذا أكتب؟ ثم أغرق في أحداث روايتي التي أرغب في كتابتها... أزور الأماكن التي ستجري فيها الأحداث، أرافق «كافكا»، وهو يحدثني عن مرافقة الشاعر فرجيل لدانتي وهما يعرجان من الغابة المظلمة، من قلبها الأسود إلى عتبات الجحيم، ثم الغوص في طبقاته... هذا من جهة ومن جهة أخرى كنت في بعض الأحيان أغازل بطلات روايتي، ولا أخجل، كنت أصطادهن وأصطحبهن إلى المنزل واحدة وراء أخرى لأمارس معهن الحب. ذات يوم سألتني إحداهن، ما هو الدور الذي سأقوم به في روايتك؟

ابتسمت لها وقلت، لقد انتهى دورك!

سألتني، كيف، وأنت لم تكتب الرواية بعد؟

قلت لها، أنا من عادتي أن أعيش أحداثها قبل أن أكتبها، وبما أنك لم تعرفي في ممارسة الحب بشكل جيد معي، فأنا مضطر للبحث عن بطلة أخرى، أكثر نجاحا ومعرفة بالحب منك..

كنت أمزح معها عندما انفجرت بالبكاء وهربت مني، مختفية في قلب الليل عبر بوابته المطلة على حي باريس القديم.

ذات يوم قالت لي ميشلين، ماذا، ألم تكن البارحة في البيت؟

أجبتها: لم أخرج البارحة من البيت.

سألتني: ولكن لماذا لم تفتح لي الباب؟ لقد قرعته أكثر من عشر دقائق..

ابتسمت لها وقلت: كنت أجالس فرانز كافكا!

نظرت إلي باستغراب وقالت: ماذا قلت؟

شعرت من صيغة سؤالها بشيء من الشفقة تسكبها علي.. فقلت لنفسي، ماذا تظن بك؟ هل تظن أن اختلاطا تم في عقلك؟ قلت لنفسي، سارع يا رجل واشرح لها الأمر قبل أن تظن بك الظنون... قلت لها وأنا أضحك بصوت عال: أقصد يا عزيزتي، كنت غارقا في قراءة أعمال كافكا..

لم تصدق ما قلته. هزت رأسها بأسف. كأنها أرادت أن تقول: أنا آسفة أن أتدخل في شؤونك الخاصة.. وإن كنت قد مللتني، فجئت بواحدة إلى البيت، فأخبرني؟؟ مددت يدي وأمسكت بساعدها وقلت: ميشلين.. هل تعودت مني الكذب حتى البارحة؟

أجابتني: كلا..

قلت لها: إذن ليس هناك سبب لأكذب عليك اليوم. ما قلته لك هو الحقيقة، وليس ما دار في رأسك من أفكار وظنون.

ابتسمت وقالت: أنا آسفة. على ما يبدو أنني أصبحت أنانية أكثر مما يجب. لم أعرف أنه لك الحق أيضاً أن تبقى وحدك ولا تفتح الباب لأحد.

ضغطت على يدها مؤيداً.

11 / 6 / ... مساءً - باريس

الليلة قررت أن أبدأ في كتابة روايتي التي أسميتها «زهور كافكا»... الليلة ففي الساعة الحادية عشرة سأذهب بصحبة «كافكا» إلى بارك مانسوري، ألف معه حي باريس القديم، أسرد عليه وقائع الرواية..

12 / 6 / ... بعد منتصف الليل - باريس

تبدأ رواية كافكا «الدعوى» هكذا: انتظر «ك» هنيهة وتطلع، ورأسه ما تزال على المخدة إلى المرأة العجوز التي تسكن أمامه والتي راحت ترقبه بفضول لم يعهده فيها من قبل. ثم دق الجرس مندهشاً، جائعاً في وقت واحد. وسرعان ما دق أحدهم الباب، ودخل عليه رجل لم يكن قد رآه في المسكن قط من قبل.

كان الرجل أهيف القامة، ولكنه كان مع ذلك قوي البنيان، وكان يلبس ثوباً أسود اللون به ثنيات مختلفة وجيوب وأربطة وأزرار وحزام كبدل السفر، ثوباً يبدو نتيجة لهذه الأشياء التي زود بها عملياً جداً دون أن يتضح للمرء تماماً فيم يستخدم، وسأله «ك» وقد اعتدل قليلاً في فراشه من فوره: (انتهى..).

أما ما حدث معي فكان صاعقاً، ولا يختلف عما حدث مع «ك»، بحيث لم أجد لدي الوقت الكافي لأسأل الرجل الذي دخل مطلاً علي من عل، من أنت؟ حدث هذا في مساء يوم 12 / 6 / ...

أما في الصباح من ذلك اليوم، أي قبل المساء الذي أتحدث عنه الآن بأكثر من اثنتي عشرة ساعة. كان المذياع قد نقل إلي عبر إذاعة مونت كارلو: أن وزير الداخلية وجد مقتولاً في حديقة مشفى القديس سان جرمان، في الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم... ثم استعرض المذيع وقائع الجريمة على لسان إحدى المرضات قائلاً: لقد دخلت غرفة المريض السيد... / لإعطائه العلاج فلم أجده في غرفته، كان المريض... / قد غادر غرفته إلى حديقة المشفى بعد أن سمح له الطبيب بذلك مذكراً إياه بضرورة عودته إلى غرفته من أجل حقنه إبرة في العضل في الساعة العاشرة بالضبط.

تابعت الممرضة: اتصلت بالدكتور المشرف على علاج المريض السيد... / أخبره ان المريض غير موجود في غرفته، فأجابني الدكتور، أن أذهب إليه في الحديقة ربما نسي نفسه فظل جالساً في أحد أركانها...

تابعت الممرضة: بحثت عنه في الحديقة كلها، وفي لحظة يأسي من العثور عليه، قررت العودة عن طريق السلم الخلفي للمشفى اختصاراً للوقت، فوجدت المريض.. في طريقي منكفئاً على وجهه والدم يغطي صدره..

تابعت الإذاعة تقريرها حول مقتل وزير الداخلية: إن الموت كان قد حدث إثر رصاصة استقرت في القلب مباشرة وأخرى في الرئة اليسرى، أما الثالثة فكانت عالقة بين عظام القفص الصدري للقتيل.

هذه الأخبار تركت توجساً في نفسي برغم أنني أسمع في اليوم عشرات الحوادث من القتل والاغتيال في الإذاعات والتلفاز وأقرأ عنها في الصحف.

قلت لنفسي ربما سبب توجسي هو، أن المغدور من بلدي، ومن أحد أركان السلطة فيها. وكان بعد ذلك، أول سؤال دار في ذهني، إن كان والدي على معرفة به؟

ذهبت إلى الجامعة، سمعت بعض «التراطيش» حول الحادث. ولكني لم أهتم به بعد ذلك... عدت إلى البيت في ساعة العصر. تناولت غدائي وجلست للقراءة استعداداً لمتابعة كتابة روايتي... وفي الساعة التاسعة مساءً، وجدت رجلاً يطل علي من علٍ وهو في حالة لا يحسد عليها، شعرت كأنه خارج من معركة أو شجارٍ عنيف... وما أن طرحت عليه سؤالي: من أنت؟ حتى عرفت فيه صاحبي «أبا أحمد» سألته بشيء من الخوف والذعر للطريقة التي دخل فيها علي، ما بك؟ هل تشاجرت مع أحد؟

انهد على الأريكة وهو يشير بيده أن أسكت والتزم الصمت!

امتثلت لأمره، وانتظرت أن يبدأ الحديث.. وبعد مضي وقت استجمع فيها صاحبي أنفاسه تابع: هل سمعت بالخبر.

سألته باستغراب: أي خبر؟

نظر إلي وهو لا يصدق ما سمعه مني: أي خبر! خبرُ اغتيال وزير الداخلية..

تذكرت الأمر فقلت له: نعم. لماذا؟

قال «أبو أحمد»: يجب أن تساعدنا، أنت هنا لا أحد يمكن أن يشك بك. ثم إن والدك من أعمدة السلطة، فهم لن يفكروا بالتفتيش عن القاتل لديك.. يجب أن يختفي عن الأنظار يوماً أو يومين، حتى

نجد له طريقة لتهريبه إلى خارج فرنسا..

وضعت يدي على فمه أسكته. ثم قلت: هل تقصد أنت الذي قتلت الوزير؟

قال: كلا.. أنا لا أؤمن بالاغتيالات. ولكنه ذاك الأحمق...

سألته: أي أحمق تقصد؟

أجاب: ذاك الذي اغتال الوزير..

سألته: هل هو من جماعتكم؟

أجاب: كلا، ولكنه يحوم في فلكنا.. يجب أن ننقذه. قد يورطنا لو ألقوا القبض عليه؟

سألته: ولماذا قتله؟

هوى «أبو أحمد» رأسه وهو يلوي شفته السفلى، ثم قال: لا أعرف. ثم تابع في اتجاه آخر: أرجوك... إن الوقت لا يسمح لي أن أبقى طويلاً لأقص عليك حكاية الاغتيال وأسبابه.. علي أن أجد له مكاناً يختفي فيه، الآن...

سألته: ومن اقترح عليك أن تأتي إلي؟

نظر إلى وجهي، ثم ما لبث أن أطرق وقال: لا أحد. جئتك من تلقاء نفسي...

قلت: عال. ثم سألته: هل يعرف أصحابك أنك لدي؟

أجاب: كلا...

قلت له: من المخاطرة أن تأتي به إلى هنا يا صاحبي! ربما فكرت بطريقة صحيحة، من أن أحداً لن يأتي إلى بيتي ليفتشه قبل يومين أو ثلاثة.. لو كان والدي لم يزرع حولي رجاله...

نظر الي أبو أحمد وسأل: ماذا قلت؟

أجبته: لقد كان والدي منذ أسبوع هنا، لدي... جاء ليطلعني على ضرر علاقتي بكم، حذرني من استمرار هذه العلاقة، بعد أن أخبره الرجال الذين أرسلهم ورائي.. لذا يا صاحبي إن المجيء بصاحبك إلى بيتي هذا يعني أنك تسلمه بنفسك إلى الشرطة.. وأنا لدي اقتناع بأن رجال والدي على صلات ما برجال الشرطة الفرنسية...

انتفض «أبو أحمد» رعباً وقال: لماذا لم تخبرنا بذلك؟

أجبته: لأنني لم أكن أعلم بذلك.

حاول «أبو أحمد» الإسراع في الذهاب. ولكني أمسكته من يده وقلت: يجب أن نبحث معاً عن طريقة لإخفاء صاحبك...

نظر إلى وجهي وسقط سؤال من فمه: كيف؟

قلت له: لا أعرف بالضبط. ولكن يجب أن نبحث عن طريقة.

التزم «أبو أحمد» الصمت وهو ينظر الي، فتابعت: يجب أن تسهر لديّ لأن خروجك بهذه السرعة قد يثير انتباه رجال والدي – طبعاً إن كانت حكاية والدي صحيحة لا كذب فيها!

سألني «أبو أحمد»: ولماذا سيكذب والدك عليك؟

أجبته: من أجل أن يخيفني ويبعدني عنكم..

قال: المهم، كيف ستساعدنا؟

قلت له: لدي بيت في منطقة باريس القديمة، أما الطريقة للوصول إليه دون شبهات فلا أعرف كيف؟

سألي «أبو أحمد» باستغراب: أول مرة أعرف أن لديك بيتاً في الحي القديم.

أجبته: لأنني أيضاً لم أكن أعلم قبل زيارة والدي، لقد قدمه إليّ هدية. محاولة منه أن يبعدني عنكم.

هز «أبو أحمد» رأسه وقال: والعمل؟

قلت له: لا أعرف، يجب علينا أن نفكر...

ولكن ما جرى بعد ذلك بيني وبين «أبو أحمد» كان مفاجئاً... لا أدري كيف نسينا أمر البحث في إخفاء صاحبه، وجرنا الحديث إلى مناقشة العمل الذي ارتكبه قاتل الوزير، بخاصة بعد أن عرفت منه أن العمل كان رد فعل فردي. أي لم يخطط له أحد سوى القاتل.. وردة الفعل كان سببها، أن الوزير كان سبباً مباشراً في ضياع أخت القاتل التي اعتقلت في أوائل الثمانينات، وتعرضت لحادثة اغتصاب في السجن، ثم انتحرت بعد حالة من الانهيار الهيستيري.. كان القاتل قد سمع أن الوزير سيقوم بزيارة لباريس من أجل المعالجة من مرض عضال أصاب كبده. فجمع بمفرده مجموعة من المعلومات التي أوصلته إلى الوزير المقتول..

قلت له: أي ان صاحبك قام بفعل انتقامي لا أكثر ولا أقل؟

أجاب «أبو أحمد»: من الناحية الشكلية، نعم، أما من الناحية الجوهرية فدوافع صاحبي كانت أسمى من ذلك. لأن الوزير كان قد ارتكب جرائم بشعة يجب أن يحاسب عليها.

سألته: إذاً لماذا لم تخططوا للعملية، ما دمتم مقتنعين بضرورة قتله؟

أجابني: لم نجد ضرورة في قتله، في هذه الآونة بالضبط.

قلت: ألا تعتقد معي بأنكم تورطون أنفسكم جميعاً في عمل لم تخططوا له؟

قال: معك الحق. ولكن لا نستطيع أن نتخلى عن مؤيد لنا في محنته هذه.

وهكذا، وعلى هذا المنوال جرى نقاش جاد حتى إن «أبا أحمد»

حاول غير مرة الخروج وهو غاضب مني، متهماً إياي بأني أحاول التنصل من وعودي السابقة إلا أني كنت أهدئ من غضبه وأقول: ليس الأمر كذلك. إنما أنا أناقش الوضع معك. من أجل أن نعرف في المستقبل التصرف السليم...

ثم اتفقنا نحن الاثنين على طريقة لإخفاء صاحبه القاتل عبر وسيط غير معروف مني لكيلا تثار حوله الشبهة.. لنقله إلى البيت في الحي القديم. ثم قلت له: لا أريد أن أرى أي وجه من وجوهكم في بيتي. يمكن لكم أن تتصلوا بي في الجامعة فقط...

هز رأسه وخرج.

13/6/... مساءً - باريس

هذه المفاجأة عطلتني مرة أخرى عن الجلوس إلى منضدتي والتفرغ بضع ساعات في اليوم للكتابة .. ففي مساء يوم أمس، بعد خروج «أبو أحمد» أخذت رأسي بين يدي ورحت أعصره. وأنا أعض شفتي ندماً، ما الأمر الذي دفعني إلى أن أقبل مساعدة «أبو أحمد» وأصحابه الذين لم يثقوا بي يوماً واحداً، ولم يكف أي واحد منهم عن النظر إليّ كأنه ينظر إلى والدي الذي - حسب زعمهم - كان وراء منفاهم الذي يعيشونه هنا. سألت نفسي، هل تريد بمساعدتك لهم، أن تبرئ نفسك من أفعال والدك؟ وأن تخلق لديهم انطباعاً على أنك واحد مثلهم، عانى من والده مثلما عانوا منه؟ أم تريد الظهور بمظهر الفارس الذي يهرع لإنقاذ الناس في الملمات والشدائد؟ لماذا تريد أن تورط نفسك في أفعال أنت لا تجيدها؟ هل أنت مع القتل؟ أي أن يسمح إنسان ما لنفسه بقتل إنسان آخر لأنه على خلاف معه في

الرأي أو في المعتقد أو حتى في العرق؟

كلا، أنا لست من أمثال هؤلاء الناس؟ أنا ضد الظلم، ضد القهر، ضد الكره، ولكني لست مع القتل، ولا يمكن لي أن أكون مع القتل.. لا ... لا يمكن لي أن أكون مع القتل. لقد قتل صاحب «أبو أحمد»: ذاك الوزير عامداً متعمداً، مع سبق الإصرار والترقب...

شعرت بشيء يدور في دماغي، يكاد يفجره، فرفعت رأسي.. ويا للدهشة عندما حطت عيناي على وجه «كافكا» الواقف أمامي، على بعد ثلاث خطوات لا غير... ومن دون إرادة مني وقفت ومددت يدي إليه. قلت: أهلاً .. لماذا أنت صامت. تفضل..

ابتسم لي وخطا باتجاهي. أخذ يدي بين راحتيه وقال: هل أنت محموم؟ حرارة يدك شديدة.. قلت له: كلا... إنما أعيش حالة من الانفعال الشديد، فرفعت على ما يبدو من حرارتي قليلاً...

ابتسم «كافكا» في وجهي وقال: الأمر واضح، ثم تابع: لقد افتقدتك. أنت منذ ثلاثة أيام لم تزرني. فقلقت عليك. لذا خرجت إليك في هذه الساعة المتأخرة من الليل..

قلت له: لقد جئت بوقتك يا صاحبي ، فأنا أعيش قلقاً بسبب مشكلة ألقيت بين يدي في الليلة الماضية. ولا أعرف كيف أتصرف حيالها!

هز «كافكا» رأسه وقال: لقد اطلعت على ما تعانيه. لقد سمعت هنا وهنالك مما حدث في مشفى القديس سان جرمان... ثم تابع: كما أني استمعت إلى المناقشة التي أجريتها مع نفسك منذ قليل... ابتسم «كافكا» وتابع: لقد تحدثت مع نفسك يا صاحبي بصوت عال حتى أمكنني أن اطلع على أحاديثك.. أنا مع شرعية تساؤلاتك. نعم يجب، كما قلت، على الإنسان أن يكون ضد القتل،

يجب آن لا يخرج الإنسان من دائرة الرحمة وان خرج فيجب أن يكون خروجه إلى الشمس والماء والهواء.

سكت «كافكا»، ثم تابع بعد صمت: أعتقد يا صاحبي بأن الأوان قد حان لأن يطرح الإنسان عن نفسه شعور المرحلة الحيوانية التي عاشها ذات يوم، قبل مئات الآلاف من السنين، والتي يا للأسف تبرز في ممارساته وسلوكه، وفي بعض الأحيان في تفكيره.. على الإنسان يا صاحبي أن يخلع عن نفسه ثوب الحيوان الذي كانه. ويرتدي جلد الإنسان الذي صار إليه، ثم أضاف: لم يبق آمام الإنسان زمن كاف ليمتع نفسه بالخيرات التي أعطته إياها الطبيعة. نعم، لم يبق وقت كثير للخروج من المأزق الذي يعيش فيه. عليه أن يقفز فوق الهوة التي يسير إليها حثيثاً.. هذا المخلوق الضعيف والجبار بآن واحد...

شعرت وأنا أنظر إلى «كافكا» وهو يتحدث الي، كأني أنظر إلى نبي يستشف من وراء الحجب كارثة تحيق بنا، نحن بني البشر...

إلى هنا وتنتهي يوميات مريض جمال الحلبي.

لقد قرأتها على مهل أكثر من مرة، وقد أعدت القراءة في بعض اليوميات بالذات طويلا. كنت أبحث فيها عن جذور أزمته النفسية، أو التي كانت سببا في الوصول إلى ما وصل إليه.. ولكنني لم أجد في يومياته سوى صورة لشاب فائق الحساسية، تصل إلى حد المرض، تجاه الشرور التي تحيط به... وقد تكرس لديه هذا الإحساس وتعمق مما عاناه من أهله وأفراد أسرته بالدرجة الأولى.

...وكنت عقب قراءتي ليومياته فقط، أما قصصه فقدر رفعتها جانبا، لأنني لم أستطع البدء بقراءتها بسبب انشغالي بشؤون المشفى، من جهة كنت قد وجدت في يومياته بوحا حقيقيا بحالته النفسية التي يعيشها. فيمكن لهذا البوح أن يقدم لي المساعدة للدخول في عالمه المأزوم والتعرف على جوانب نفسه الداخلية أكثر من قصصه التي تصفحتها بشكل سريع، ومن دون تركيز..

سألته: بعد أن أخبرته عن انتهائي من قراءة يومياته، سألته:

أود أن تحدثني عما جرى بعد توقفك عن متابعة كتابة يومياتك؟

ابتسم وهو يضغط بأصابعه النحيلة جبينه المعروق وقال بتردد

واضح: لقد ألقوا القبض على الشاب في اليوم الثالث لمقتل الوزير، عندما كان يستعد للخروج من فرنسا.

سألته: هل ألقي القبض عليك في بيتك، في حي باريس القديم؟

قال: كلا، لقد بقي لدي يومين، وعندما ظن «أبو أحمد» أنه وجماعته بإمكانهم إخراجه من فرنسا، ترك الشاب بيتي وتخفى لدى الجماعة يوماً واحداً قبل أن يلقوا عليه القبض.

سألته: لماذا توقفت إذن عن كتابة يومياتك؟

ضحك بصخب وقال: لقد جاءني في يوم القبض على الشاب رجال من الشرطة الفرنسية السرية للتحقيق معي حول علاقتي بالشاب المعتقل. ولكن سفارتنا تدخلت لدى الحكومة الفرنسية وطلبت منها أن لا تزج اسمي في عملية الاغتيال، لأسباب تتعلق بأمن السلطة وهيبتها.. أما الاعتبارات الأخرى التي أخذتها الحكومة الفرنسية بعين الاعتبار عندما أغلقت التحقيق معي فلا أعرف عنها شيئاً... وهكذا، لم يمض أسبوع حتى اختطفت من باريس بعد أن رفضت العودة إلى البلد بناء على رغبة أهلي.

سألته: ولماذا لم تتابع يومياتك بعد عودتك؟

نظر إلي طويلاً، ثم قال: لماذا أتابع كتابتها؟ وماذا أكتب فيها؟ هل أتحدث عن المشفى الذي أقضي فيه حياتي؟ أتحدث عن البلابل والمروج الجميلة والمعاملة الإنسانية الرائعة التي أعامل بها؟

وسألته: وروايتك التي كنت تزمع كتابتها، ماذا حدث لها؟ هل أنهيتها؟

ظل مطرقاً وهو يحرك يديه، ثم قال: لم أكتبها، لقد شعرت بعدم جدوى كتابتها، ثم أضاف، وبعدم جدوى الحياة برمتها...

ابتسمت له وقلت: أنا لا أوافقك، لولا جدوى الحياة لما خلقنا

الله عز وجل..

رفع نظره الي وحدق إلى وجهي، ثم انفجر بضحكة تهكمية ساخرة بعثت في نفسي الاستياء...

وكما قلت: بعد أن توطدت علاقتنا، وبخاصة عندما راح يشاركني في النقاشات، الطويلة التي تأخذ طابع الحوار الهادئ... جاءت الأحداث المفاجئة والسريعة لتضع الحد لها..

كانت الأحداث قد بدأت ببطء ما لبثت أن تسارعت بشكل عاصف... و أستطيع القول: إن ما جرى خلال الأيام القليلة الماضية لا يمكن أن يجري إلا في الأحلام! فأنا عاجز عن وصف ما حدث! أو الحديث عما جرى، لأن ما وقع كان أمراً خارج المألوف. لا يمكن أن يسمع به إلا في حكايات الجدات اللواتي كن يتحدثن لنا، ونحن أطفال عن ملوك قساة، متوحشين، لا يعرفون الرحمة والرأفة، يجيدون الظلم والقتل، لا يعرفون سوى البسمة الساخرة الهازئة التي يخفون وراءها الكره والحقد للناس.. ولا أعرف ماذا أقول أيضاً في وصفهم، وماذا أضيف؟ لو كنت كاتباً لوصفتهم بأقبح صورة ممكنة وأدنأ سلوك واقذر لسان.. هذا وقد عرفت بعد الأحداث الأخيرة، ولأول مرة، أن وراء العالم الذي نعيش فيه عالماً آخر متوحشاً وغير إنساني. وجدت نفسي فجأة في خضم الأحداث دون قصد مني أو مقدمات...

وقبل أن أتحدث عن الوقائع المتعلقة بي، وهي حادثة احتجازي في غرفتي من قبل رجال غرباء اقتحموا المشفى كما خمنت أول الأمر.. قبل الحديث عن هذه الواقعة، أود أن أمهد في حديثي لذلك بوقائع وصلتي متأخرة، وقد كانت تجري خفية دون أن يدري بها أحد، حتى المريض نفسه كان لا يعلم بها. وقد ابتدأت عندما أثار انتباه الشقيق الأكبر للمريض، القبول السريع للممرضة من قبل

المريض، بعد أن رفض قبل ذلك، ثلاث ممرضات قبلها.. حاول شقيق المريض أن يقنع نفسه على أنها واحدة من نزوات أخيه، لن يلبث أن يطرد الممرضة الجديدة كما طرد سابقاً الممرضات الثلاث... إلا أن الأخبار أخذت تصله، من أن علاقتهما طيبة، وهما في انسجام وتفاهم تامين.

في البداية، ارتاح الشقيق لذلك، ولكنه ما لبث أن لعب الفأر بعبه كما يقول المثل الدارج، تساءل: ماذا لو كانت هذه الممرضة هي نفسها التي أصيب من أجلها بالانهيار العصبي؟ فألحقت العار باسم الأسرة ومكانتها الاجتماعية؟ ماذا لو كانت هي نفسها تلك الفتاة؟

حاول أن يبوح بما يجيش في صدره من أفكار إلى بعض أفراد الأسرة، ولكنه تراجع قبل أن يخطو خطوته الأخيرة وهو يقول: يجب أن أتيقّن بنفسي... فقام ذات صباح بزيارة لأخيه في القسم المخصص للمريض، وأطلع على الأوضاع المعيشة لأخيه.

يقال، ان اللقاء لم يكن ودياً بينهما.. وقبل أن يقوم الشقيق الأكبر منهياً زيارته قال لشقيقه المريض: يلزمك خادم. هذه الممرضة يجب أن تكون ممرضة فقط، أما أن تقوم بدور ممرضة وخادمة فلا يجوز ذلك، وأنهى حديثه: لا يجوز هذا...

شد على يد شقيقه المريض وقال له: سأرسل لك خادماً خلال أيام الأسبوع القادم، ومضى.

كان الشقيق الأكبر، قبل زيارته لأخيه، قد خطط لإرسال خادم، يكون بمثابة عين عليه ليعرف إن كانت الممرضة هي الفتاة نفسها التي جن شقيقه بسببها أم هي واحدة أخرى؟ وكان الشقيق الأكبر قد أخبر الخادم أن يتحرى الأمر على مهل، دون استعجال للأمور، وأن يكون حريصاً على أن لا يشك المريض به. وأن يحرص على التمثيل لدور

الخادم فقط. وأن ينفذ رغباته كما يريد المريض لكي لا يغضب منه فيطرده.

لعب الخادم دوره على أكمل وجه بحيث كان يصعب على المريض وممرضته أن يكشفا عن هوية الخادم الحقيقية.

كان الخادم كلما حاول القيام بعمل ما يخطو إلى الممرضة، يقف أمامها مطرقاً كعبد ذليل، فيظل صامتاً، ينتظر ان تسمح له بالكلام، لم تره الممرضة في يوم من الأيام قد رفع وجهه إليها أو نظر إلى عينيها، كانت لا ترى على وجهه سوى علامات المسكنة والمذلة والجبن. كانت تراه دائم الاستعداد للقيام بكل الأعمال من اجل إرضاء المريض.

كانت الممرضة ترى في الخادم إنساناً رقيق القلب، لأنه أعطى كل اهتمامه للمريض، حتى إنه كان يأتي إليها ويسألها، عن أحواله باستمرار، فقد قال لها ذات مرة: أشعر بالشفقة عليه. إنه إنسان نبيل. كيف يمكن لمثله أن يكون في هذا الوضع؟ ثم سألها: ألا ترين معي أنه مظلوم؟ أقصد أن أهله قد ظلموه؟

نظرت إليه طويلاً: فأطرق وجهه وقال: أنا آسف، أعرف أنه لا يحق لي البحث في مثل هذه المواضيع، ولكن الأمر ليس بيدي. فأنا أحس اتجاهه بشيء من الشفقة.. ثم أضاف: لقد أحببته... على ما يبدو أنه عانى كثيراً في حياته..

هزت الممرضة رأسها بعد أن تنهدت تنهيدة طويلة وقالت: نعم. لقد عانى وما زال يعاني...

سألها الخادم: أيمكن لقلوب الأغنياء أن تكون بهذه القسوة؟

هزت الممرضة رأسها وقالت: عندما تتعارض مصالحهم مع عواطفهم، فهم يقفون أبداً إلى جانب مصالحهم، ولا يلتفتون إلى ما

في قلوبهم من عواطف..

ثم رفعت الممرضة نظرها إليه وقالت: عندما يلمسون أن العواطف التي تتحرك في قلوبهم تدفعهم باتجاه لا يخدم مصالحهم يسحقون عواطفهم ويقبضون بيد حديدية على قلوبهم ويضغطون عليها حتى السحق..

طلب الخادم قائلاً: عفواً، هل لك يا آنسة أن توضحي لي كلامك هذا بمثال:

لأنني بصراحة لم أفهم بدقة ما تعنين...

قالت الممرضة موضحة: المثال واضح، هو المريض... لقد أحب فتاة، ولكنها ليست من ثوبه كما يقول المثل، فقيرة، فحاربه والده، ثم شقيقه الأكبر بعد ذلك ولم يجدوا أي عار من أن يتهموه بمرض الجنون، وأن يدخلوه المشفى.

قال الخادم: لقد سمعت بهذه القصة ولكني لم أصدقها. ثم أضاف: هذا يعني أن ما يشاع عنه وعن أسرته صحيح...

سألته الممرضة: وماذا يشاع؟

أجابها: ما أخبرتني به الآن. ثم أضاف سائلاً: والفتاة؟ ماذا حل بها؟ هل تخلت عنه؟ لم تكن الممرضة تعرف أن الخادم كان قد نصب لها من سؤاله فخاً. وراح يدفعها باتجاهه دفعاً. لقد ظهر أمامها بمظهر الجاهل البسيط، الساذج... فأخبرته بأن الفتاة لم تتخل عنه. وأنها لم تصدق بأن المريض مصاب بأعصابه، فاستمر الخادم في لعب دور الغبي، فسألها: ولكن أين ذهبت الفتاة؟

وبصورة تلقائية أجابت: أنا...

ارتد الخادم إلى الوراء غير مصدق! وهو يقول بدهشة: أنت.. ولكن كيف؟

استمرت الممرضة في حديثها: انهم لا يعرفون ذلك. فأنا بالنسبة إلى أهله مجرد ممرضة. سألها: كيف؟ ألم يروك وأنت تقومين على تمريض أحد أفراد أسرته؟

أجابت نعم. ولكنهم لا يعرفون بأني الفتاة!

لم تشعر الممرضة بالخطأ الذي ارتكبته إلا بعد ذهاب الخادم. عادت إلى نفسها وقالت: ماذا فعلت أيتها الحمقاء؟ كيف كشفت السر الذي لا يعرفه أحد؟ ماذا لو أشاع الخادم سرك في المشفى عن سوء نية أو حسنها؟

اختفى الخادم من المشفى. أرسلوا خادماً آخر. لم يوضحوا للمريض أسباب اختفاء الخادم الأول. أجابوا عن السؤال بأنه نقل إلى مشفى آخر لسوء سلوكه مع إحدى الممرضات. نقل كعقوبة بحقه.

انتاب الممرضة شعوران بعد ذلك، الأول، بالراحة، لأن أمر الثرثرة قد قطع مع نقل الخادم من المشفى، والثاني بالقلق! قالت: ماذا لو أن الخادم لم ينقل للأسباب التي أشاعوها في المشفى، إنما لأسباب أخرى؟ مثل انتهاء مهمته في التجسس؟ استمر قلقها واضطرابها خلال ثلاثة أيام... وفي صباح اليوم الرابع استدعاها المدير الإداري للمشفى وسلمها أمر نقلها من المشفى إلى مشفى آخر، في بلدة على حدود الصحراء.

استغربت الممرضة أمر نقلها، فقالت للمدير: ولكني لم اطلب منكم أن انقل من المشفى... وأعتقد بأني لم أقصر في واجبي تجاه المريض الذي أقوم على تمريضه أو باتجاه المشفى ككل؟...

حرك المدير الإداري للمشفى يديه أمام وجهه كأنه يقول لها، أنا مثلك لا أعرف أسباب النقل، ثم قال: لقد جاء أمر النقل من الوزارة مباشرة...

قالت له: هل ستساعدني لو طلبت منك رد طلبهم على أساس أن المشفى لا تتخلى عن خدماتي؟ نظر إليها المدير ثم قال: لا أعرف ماذا أقول لك يا آنسة.. لكن أن كانت هذه هي رغبتك فسأكتب حاشية على طلب النقل وأذيله برأيي بناءً على طلبك.. وأعيده مرة ثانية إلى الوزارة...

أخبرت الممرضة المريض بالخبر فقال لها والألم يعتصره: كيف تخطئين هذا الخطأ؟ كيف تسردين على خادم جاسوس حكايتنا يا حمقائي الطيبة. لقد جلبت لنا متاعب كنا بغنى عنها اليوم. ثم هز رأسه وتابع: الآن.. هل صدقت ما كنت أقوله عن البشر بأنهم وحوش لا يعرفون الرحمة، لديهم قدرة على الذبح من أجل مكسب تافه؟

ثم أنهى حديثه: إذن يا ممرضتي الجميلة، علينا أن نجابه مرة أخرى المصاعب القادمة إلينا.

قالت الممرضة: لا تبالغ..

قال: أنا لا أبالغ أبداً. إنما أقول الحقيقة، لأن الواقع أراه بعين أحد أفراد أسرة الحلبي...وليس بعينيك..

ولم يمض أسبوع حتى جاء قرار نقل الرئيس الإداري للمشفى مع فرض عقوبة بحقه لأنه خالف تعليمات الوزارة، ثم تم إبلاغ الممرضة بأمر النقل والتنفيذ فوراً..

نزل خبر نقل الممرضة على المريض كالصاعقة، فقال وكيانه يرتجف من الغضب: أموت ولا أدعهم ينقلونها...

ثم طلب الاتصال بأخيه الأكبر. ولكن الأخ رفض الطلب محتجاً ببعض الأعمال الهامة التي غرق في الآونة الأخيرة فيها.. وما أن ينتهي منها حتى يلبي الطلب له.

عاد المريض إلى المطالبة بلقاء أخيه الأكبر ولكن دون جدوى..

وفي صباح اليوم الثالث. طلب من مدير المشفى الجديد السماح له بالخروج إلى أخيه لمقابلته في البيت، رفض المدير الطلب وقال له: ليس لدى المشفى تقليد بالسماح لمرضاها الخروج منها إلا في حالة البرء من المرض.. لذا يتعذر المشفى عن قبول طلبك، ولكني أستطيع إن كتبت رسالة لأخيك، أن أوصلها إليه.

أدرك المريض أنه لن يقدر على الخروج من المشفى. لذا كتب إلى شقيقه الأكبر رسالة طلب فيها، العمل على إيقاف نقل الممرضة وإلا سيرتكب حماقة تلحق العار به..

أجابه الشقيق الأكبر: أرجو أن لا تهول الأمر يا عزيزي.. أما إيقاف نقل الممرضة، فهو ليس بيدي، إنما بيد الوزارة، ولكن سأحاول أن أعيد الممرضة إلى المشفى بعد نقلها بمدة قريبة..

عاد وكتب رسالة أخرى مهدداً: إن لم تعمل على إيقاف النقل... سأنتحر...ثم أكد: في اليوم الذي تخرج الممرضة من المشفى سأنفذ قراري..

أما المريض فكان خلال هذه المدة التي صارع فيها، وهو في جناحه الخاص في المشفى، القوى التي تكالبت عليه. طلب من الممرضة أن لا ترد على أمر النقل، وأن تداوم لديه في جناحه الخاص. وهذا كان في مدة ثلاثة أيام فقط.

في الليل بقي المريض وحيداً، وكان ذلك أول مرة بعد أن اختفى الخادم وذهبت الممرضة منصرفة إلى البيت. لقد جاءه رئيس الممرضين وسأله إن كان بحاجة إلى شيء؟

رفع المريض رأسه إليه وقال: أشكرك. ثم أضاف: أرجو أن تخبر الطبيب إن كان لديه وقت ورغبة، أن يأتي إلى زيارتي، فأنا بانتظاره حتى الساعة الثانية عشرة...

تردد رئيس الممرضين في الانصراف، أراد أن يقول له، إن الطبيب محجوز في مكتبه مثلك تماماً. لقد أرسلت له أسرتك طاقماً من الطغاة ليبقوا أمام باب مكتبه، يمنعوه من الخروج..ولكن رئيس الممرضين بلع ريقه وأطرق إلى الأرض يداري خجله وقال: سأخبره برغبتك. نعم يا سيدي. سأخبره بذلك برغم اعتقادي بأنه لا يقدر على المجيء...

وخرج...

رفع جمال وجهه إلى ما حوله من جدران. أدرك نظره في المبنى الواسع الذي يقبع فيه. قال، كأنني غريب، أو بت غريباً. لماذا هذه الوحدة التي أحياها؟ لقد انفضوا عني، حتى .ن/ انفضت عني. لقد قلت لها أن تبقى إلى جانبي هذه الليلة، أخبرتها بأني كتبت قصة جديدة أريد أن أقرأها لها، ولكنها اعتذرت. قالت: آسفة، فأنا مضطرة للخروج. هناك والدي بحاجة إلي هذه الليلة. ثم أضافت: وفي الصباح سأكون عندك.. في الساعة السابعة. لن أتأخر عن السابعة...

ولا يدري لماذا شعر بأن ...ن/ تكذب عليه أولَ مرة! لم تكذب فيما سبق عليه في يوم من الأيام... ولكنها الليلة شعر بأنها تكذب عليه... هل يا ترى؟

يا الهي.. أتشك فيها؟ يا لك من قميء، هي لم تحب أحداً سواك من الرجال...

ابتسم، قام ومشى على أرض الصالة، سعيداً نشوانَ بعد أن اعترف لنفسه، بأنها لم تحب أحداً سواه من الرجال.

وقفز عالياً وهو يقول لنفسه، لا تجن قبل الأوان، أنت تعرف أن ضحكك ورقصك وقفزاتك لن تحلك من المسؤولية بعد أن اتضح لهم أن الممرضة هي تلك الفتاة التي أضعت - حسب رأيهم- حياتك من

أجلها! أسأت - حسب رأيهم - إلى اسم عائلتك.

وتساءل عندما تذكر الرسالة التي أرسلها إلى شقيقه الأكبر:

هل أنت صادق في تهديدك؟

نعم...

كيف نعم؟ انه الموت...

ليكن..

ألا تعتقد بأنك ستفقد الجرأة لتنفيذ الأمر؟

لا ينقصني شيء.

بل ينقصك..

سنرى..

لا بأس.

تمدد جمال على الأريكة وحدق إلى كعوب الكتب التي أمامه في المكتبة.

هل أنت جاد في تنفيذ تهديدك؟

قلت نعم...

بل صدق.

ولكن قل لي: ماذا ستربح؟

على كل، في كلا الحالين لن أربح شيئا؟؟؟

أنصحك، لكي تنقذ نفسك من هذه الأفكار، أن تقوم إلى منضدتك لتدون على أوراقك ما ترغب في كتابته منذ ساعة..

أعتقد بأنه خير حل..

وقام المريض إلى أوراقه، لم يكن في رأسه شيء محدد، كانت الفوضى تعبث في خلايا عقله، لذا لم يستطع أن يركز.. فراح يجر قلمه على الورقة البيضاء جرا، ليكتب رسالة يسكب في سطورها

معاناته الأخيرة..

كان المريض قد كتب في رسالته التي وصلت إلي عن طريق رئيس الممرضين قبل انتحاره يحدث نفسه أكثر مما يتحدث إلي أو إلى إنسان آخر. كان في حالة يائسة تماماً برغم السخرية المشوبة بالمرارة التي كتب بها رسالته. يقول فيها: لقد رسموا مصيري منذ اليوم الأول من حياتي... هكذا أرادوا أن أعيش، أنمو أمامهم كوردة في حوض حجري أو مرمري لا فرق. وعندما يرغبون يمدون أياديهم إلى جذعي، يقطفونني، يشمونني أو يرمونني في سلة القمامة غير آسفين كأنهم يقولون: لم يكن الوردة التي نريد! ماذا أفعل إن لم أنمُ كما أرادوا. نموت كما أردت؟ ماذا أفعل إن لم ألتفت إلى تهديدهم ووعيدهم: من أني أرمي نفسي إلى التهلكة إن عاندت واستمررت في السير على الطريق التي اخترت.. فأنا فوق إرادتي وفوق إرادتهم. بدءاً من والدتي وانتهاء بمن حل في مكان أبي من أخوتي بعد وفاته...

أعترف بأني أزعجتهم بسلوكي الذي مارسته في حياتي، وأعترف أيضاً بأنهم أعطوني الفرصة تلو الفرصة لأثوب إلى رشدي الذي فقدته كما يقولون، أعترف بأنهم كانوا يحاولون أن أكون مثلهم وليس مثلما أردت أن أكون، وما كنت، كنت بالنسبة لهم العار والخزي والخيانة.. وأعترف في آخر فرصة منحوها لي قالوا: إن لم تعد إلى جادة الصواب، فلن تجد منا الرحمة والرأفة، سنعاملك كأعدى الأعداء، لم نسمح أن تهدم ما بنته الأسرة في سنوات! أعترف بأني لم التفت إلى تهديدهم، سرت على هواي وما يمليه علي وجداني وضميري.. أعترف بأن المعركة قد بدأت بيننا قبل اليوم بأكثر من عشر سنوات.. أعترف بأنهم انتصروا في نهاية المطاف، أما أنا فهزمت هزيمة كاملة، فأنا الآن أسمع رجاء ممرضتي وهي تطلب من

حارس المشفى أن يسمح لها بالدخول عليّ، من أجل أن تلم ما يخصها من الأشياء وترحل عن المشفى بعيداً إلى المكان الذي نقلت إليه، ها أنا أسمع صوت الحارس يقول: أرجوك يا آنسة لا تحاولي أن أسيء إليك، فأنت إنسانة طيبة، لم نجد منك خلال خدمتك في المشفى إلا الخير والطيبة، ولكن.. ولكنهم. أقصد - تعرفينهم - منعوني من السماح لك بدخول المشفى ومقابلة المريض.. أما بشأن حاجاتك فسأجلبها لك بنفسي..

هنا اختفت الأصوات عن مسامعي، وبرزت الصور أمام عيني، صور لأناس بهيئة وحوش غابة حجرية في آخر الأفق. وموج لعين مضطرب يبتلع كل الأزهار التي تساقطت من السفن الراحلة، ثم ها هي السكاكين والبلطات تبرز أمام وجهي، تريد النيل من قسماتي. تهددني أن أبتعد عنها. أنت لست من الذين يمكن لهم أن يتزوجوا ممرضات! القتل أفضل بالنسبة إلينا من السماح لك بالزواج منها. ماذا يقولون. هكذا أسأل نفسي وأنا أغلق نوافذ سجني الذي وضعوني فيه بحجة، أنني ابن لعائلة، لأسرة لها عراقتها وتاريخها فلا يمكن أن يعيش مع بقية المرضى.

يجب أن يكون لي جناح خاص، وممرضة خاصة وخادم خاص. وأيضاً طبيب خاص.. هؤلاء استخدموهم ليس لراحتي وعلاجي، إنما للتجسس علي وقتلي ببطء دون أن يتحمل أي واحد من أفراد أسرتي وزر القتل، لقد ضيقوا الخناق علي. وحيد في سكن واسع فارغ تصفر فيه الريح وتعوي فيه الأشباح وتئن فيه الأفاعي وتفح فيه الجرذان...

لا بأس إن كنتم قد وصلتم إلى اقتناع، بعد إخفاق محاولاتكم في دفعي إلى السير في الطريق القويم - حسب رأيكم - أن أموت، لا بأس ليكن موتي هدية لكن، تاجاً على رأس العائلة وزمردة في آذان

نسائكم...

لقد وصلت إلى أبواب العجز بعد رحلتي الطويلة من أجل أن أصل إلى باب الحياة التي أريد وأرغب. ها أنا يا أخوتي أنهار أمام بابكم فافعلوا بي ما تشاؤون فدمي مباح لكم، لحمي حلال عليكم..

وفي الحاشية، كان المريض قد كتب بضع كلمات، لم أفهم منها شيئاً كأنها شيفرة سرية موجهة إلى الممرضة.

قلت لرئيس الممرضين: هل تعتقد أن بإمكاننا إرسالها إلى الممرضة؟

هز رئيس الممرضين رأسه نفياً، ثم تابع: انهم يتزايدون في المشفى. لقد أصبحوا أكثر بكثير من نزلائه، لقد عزلوا القسم الخاص بالمريض عن بقية أقسام المشفى تماماً، انهم يدبرون عملاً ما!

سألت: ما هو؟

هز رئيس الممرضين رأسه نفياً: لا أعرف؟

لم نستطع أن نسلم الرسالة إلى الممرضة إلا بعد فوات الأوان. ضمت الرسالة إلى صدرها وبكت بمرارة وهي تقول لقد قتلوه. ثم تساءلت: هل يمكن لأحد ما أن يصدق أن أخا يمكن أن يقتل أخاه؟

التبس علي الأمر، فالتفت إلى رئيس الممرضين مستفسراً بعيني عن معنى ما قالته، لأني سمعت أن المريض قد انتحر، ولم يقتله أحد.. ولكنها تابعت: لقد دفعوه إلى الانتحار دفعاً. كانوا يعرفون أنه سينفذ تهديده إن أصروا.. وبرغم هذا لم يتراجعوا عن قرارهم، يالهم من مجرمين.

وبكت بمرارة

جاءت جملتها «يالهم من مجرمين» في تلك اللحظة موفقة في وصفهم. أعتقد بأن الممرضة لم تطلق تلك الجملة لتشتمهم، إنما

لنصف حقيقة عاشتها، ففي اليوم الذي سبق انتحار المريض، قالت الممرضة: لقد جاء رجلان بسيارة وطلبا مني الركوب معهما، لقد أمر الشقيق الأكبر للمريض بذلك. قلت لهما: لن أذهب، قالا معاً: لا تحاولي أن تثيري مزيداً من الفضائح، إن لم تصعدي برغبتك، سنجبرك على ذلك، ثم وضحا لي: لا تخافي، فالسيد يريد أن يتحدث إليك قليلاً...

صعدت معها وأنا شاردة لا أعرف ماذا أفعل، وكيف أتصرف؟ وبعد زمن طويل وصلت السيارة بنا إلى الفيلا الواقعة في مزرعة أشبه بغابة، قابلني شقيقه الأكبر في الشرفة، لقد احتفى بي جداً، وكان كريماً معي، ما لبث، بعد طول تأمل وتدقيق أن قال: إذن، هذه أنت التي جن أخي بسببها؟

نظرت إليه وقلت: أخوك ليس مجنوناً، وأنت تعرف ذلك جيداً...

ابتسم بسخرية وقال: إذن، ماذا يمكن لك أن تسمي مرضه؟

قلت: ليس مريضاً لأسمي لك مرضه..

قال: وماذا تقولين عن تعلقه بك مضحياً بعائلته ووضعه الاجتماعي؟ ثم أضاف:

هل هو رجاحة في العقل؟

أطرقت وجهي ولم أجب. تابع الشقيق الأكبر: أرجوك أن لا تنظري إلى بكره وحقد بسبب تلميحي إلى منبتك الفقير. هذا المنبت لم تختاريه بنفسك، إنما الله سبحانه وتعالى اختاره لك. وأنا أيضاً لم أختر منبتي، إنما اختاره الله عز وجل لي.. وهذا الفارق الذي بيننا، بين منبتي ومنبتك يا آنسة يجب أن يبقى وإن حاول بعضهم إلغاءه فهو بذلك يتحدى إرادة الله، وفي هذا كفر وتمرد. هذه المسافة لا يمكن أن

تلغى إلا بإرادة الله.. وما محاولات أخي إلا جنون، لأن الله قد خلقنا درجات. وهذه هي حال الدنيا يا آنسة منذ أن وجد آدم وحواء على الأرض..

قلت له: أنت تحدثني عن أمور لا أعرفها. أما الأمر الذي أعرفه معرفة جيدة فهو أنني أحببته وهو أحبني وأردنا أن نجمع شملنا في حياة واحدة وتحت سقف واحد، في هذه الدنيا.

هز رأسه وهو يبتسم بسخرية. ما لبث أن قال: يا آنسة أرجو أن تكوني عاقلة وتعقلك - برأيي - هو في خروجك من حياة أخي، وان تدعيه يعيش الحياة التي أرادها الله له.. وان فعلت فلن أبخل عليك بشيء، سأمدك بالمال طوال ما أنت على قيد الحياة. سأجعل منك سيدة ليست ككل السيدات، سيدة مرفهة في حياتها ومعاشها..

شعرت بكره لمحدثي في أول مرة قابلته، قلت في نفسي، انه وغد وحاقد كما أخبرني عنه جمال، قلت لنفسي لا تخافي منه. فأجبته: أرفض عرضك وكل العروض الأخرى التي يمكن أن تقدمها لي يا سيدي...

وهز رأسه وقال: هل تريدين أن أقنع نفسي بأنك تحبين أخي لشخصه الكريم فقط!

وليس لماله ومكانته الاجتماعية؟

قلت له: أنت حر في اختيار الجواب لنفسك..

قال كلمة باترة: حمقاء، ثم أضاف: فكري بالأمر، فلم يفت الوقت بعد.

وهنا كان لا بد لي من مقاطعتها...

رفعت نظرها إلي عندما سألتها: أرجو المعذرة! أود أن أطرح عليك سؤلاً يدور في ذهني مذ عرفت بقصة حبكما أنت وجمال..

وابتسمت لها وتابعت: طبعاً إن كان هذا لا يسبب لك إحراجاً؟

قالت: تفضل..

سألتها: كيف تم تعرفكما – أقصد في أي ظروف اجتمعت به أو اجتمع بك؟ ثم أضفت: بي رغبة قوية لمعرفة هذا الأمر...هذا إن كان الأمر، كما قلت لك لا يزعجك..

ظلت تنظر إلي وهي صامتة ساكتة، لم تبعد نظرها عن عيني طوال حديثي معها، الحديث الذي ضمنته سؤالي.

ظلت ملتزمة الصمت بعد سكوتي، ثم ما لبثت أن شعرت بحراجة الموقف بعد أن طال صمتها.. فأطرقت قائلة: كلا .. ليس هناك أي إحراج.. بل العكس فسؤالك يمنحني لحظات سعادة في استذكار لحظة لقائي مع جمال، برغم أن تلك اللحظة كانت شبه مأساوية!

ثم أضافت بعد أن رفعت وجهها إلي: ولكن لا تطمح في تفاصيل ما. لأن أي تفصيل سيعذبني، وبخاصة أني كنت سبباً في أذاه أكثر من مرة، رغماً عني – وذلك لغبائي في أكثر الحالات...

قاطعتها: لا أعتقد.. يجب أن تقولي، صدقك كان السبب، كما أن أسلوب تعاملك السوي مع الناس هو الذي أوقعك في حالات الأذى..

هزت رأسها وقالت معلقة: الصحيح هو سذاجتي.. نعم سذاجتي..

ثم انتقلت مباشرة إلى سرد قصة أحداث لقائها بجمال. قالت: كنت في غرفة الممرضات في المشفى، أعد نفسي للانصراف بعد أن انتهت نوبتي الصباحية.. كنت بانتظار زميلتي التي من عادتها التأخر بعضَ الوقت.. كنت أدور في غرفتي لقتل الوقت ريثما تأتي زميلتي

لتتسلّم وردية الظهر مني.. وفجأة دخل علي آذن «قسم الإسعاف» وهو بحالة مضطربة يصرخ بي: آنسة.. آنسة. الحمد لله على عدم انصرافك.. هناك حالة إسعاف خطيرة والدكتور المناوب بانتظارك بسرعة..

نظرت إليه، ثم ما لبثت أن هرعت إلى غرفة الاسعاف، وفي منتصف الطريق – الممر رأيت الدكتور يهرع مع بعض الممرضين وهم يدفعون شاباً ملقى فوق «الدسكرة» والدماء تقطر منه.. فشاركتهم في الركض باتجاه غرفة العمليات، كما أشار الطبيب إلي.. ظل الشاب تحت يدي الطبيب أكثر من ثلاث ساعات حتى انتهى من وقف النزيف، وتعويضه الدم الذي فقده، ومن ثم العمل على تضميد جراحه التي أحدثها اصطدامه بالسيارة..

طلب مني الطبيب أن أبقى إلى جانب المريض لمراقبة حالته التي لم تستقر بعد.. اذكر أن لغطا كان قد جرى في المشفى، لأنه لم يتعرفوا بعد على هوية المريض، لم يجدوا معه أية بطاقة تشير إلى شخصه.. فتساءل طاقم المشفى الإداري إن كانت وثائق المريض قد سقطت منه في أثناء الحادث أم سرقت؟

ظللت ذلك اليوم في وردية بعد الظهر أيضاً، لأن زميلتي اتصلت بالهاتف تعتذر عن مجيئها إلى المشفى بسبب مرض والدها...

كان الشاب، ولم اكن أعرف اسمه في ذلك اليوم، على سريره بعد أن أخذت حالته تستقر رويداً رويداً. سمعت صوته، أول الأمر، جاءني ضعيفاً، ثم أتاني طبيعياً وهو يسأل: أين أنا؟

نظرت إليه: في المشفى .. اطمئن...

تلفت حوله، ثم عاد وثبت نظره في عيني طويلاً كأنه يريد أن يتذكر أمراً ما، ما لبث أن أغمض عينيه مرة أخرى...

أخبرت الطبيب بذلك فاستبشر خيراً..

وهنا، كان لابد لي من الانصراف، بعد أن وصل زميلي الممرض ليتسلم مني وردية المساء.

وفي الصباح لم أجد الشاب، سمعت أخباراً لم اصدقها، قلت إنها مبالغات... ولكن الجميع، جميع من في المشفى قد أكدوها... أما ما كان بعد ذهابي من الأحداث فأمره غريب! وصل خبر الحادث الذي تعرض له الشاب إلى أسرته في ساعة متأخرة من الليل، فجاؤوا وأخذوه من المشفى وهم يشتمون المشفى ومن فيها لأن العاملين من أطباء وممرضين لم يتصلوا بالأسرة من أجل نقل الشاب إلى أرقى مشافي المدينة. يقال إن رئيس المشفى قد غضب منهم جداً، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل أمام أسرة الحلبي، إحدى أغنى عائلة في البلد وأشدهم نفوذاً؟ لم يكن أمام رئيس المشفى سوى أن يقول لهم، إن هذا، على ما يبدو جزاء ما قام به الطبيب من إنقاذ حياة ابنكم المصاب في رئته دون أن يعرف ابن من هذا الشاب، أو جزاء تلك الممرضة التي رفضت الانصراف بعد انتهاء ورديتها من أجل أن تساعد الطبيب في محاولة إنقاذ حياة ابنكم، ثم قبوعها إلى جانبه أكثر من ست ساعات وهي تراقب حالته واستقرار وضعه الصحي.. أهذا جزاء من أنقذ حياة ابنكم أيها السادة؟

تابعت الممرضة: ولم أصدق أن الشاب الذي جلست إلى جانب رأسه كان ابناً لأسرة الحلبي!! ولم تمض أيام حتى كنت قد دفعت الحادث بعيداً عن ذاكرتي – ولكني ذات يوم بعد انصرافي من المشفى وأنا في أول الشارع، اقترب مني شاب ووقف أمامي وهو محرج، ثم قال: آنسة، أنا آسف لإزعاجك.. ولكن أرجو أن تمنحيني دقيقة من وقتك لأقدم لك شكري على ما قمت به.. الشكر الذي لم يعرف أهلي

أن يقدموه لك.. يوم كنت غائباً عن الوعي في المشفى، وأنت تقبعين بقرب رأسي تسهرين عليّ...

وهنا تذكرت صاحب الوجه الشاحب الذي كان واقفاً أمامي، فأصابني إحراج وارتباك، لم أعرف ماذا أقول له، وكيف أتصرف بحضرته.. بينما تابع هو: وان لم يكن لديك مانع دعيني أن أوصلك في طريقي إلى بيتك.. سأكون من الشاكرين لك لو منحتني هذه الفرصة.

اعتذرت منه وقلت: أشكرك. من عادتي أن أسير على قدمي إلى البيت، وهو ليس ببعيد من هنا، ثم أضفت: أما الشكر لما قمت به تجاهك، فأنا لم أقم سوى بواجبي.. أشكرك...

وحاولت أن أتنحى من أمامه لأسلك طريقي إلى البيت.. ولكنه لم يدعني وهو في حالة من الاضطراب والارتباك لا توصف.. أرجوك. قال: دعيني أقدم لك هذه الخدمة الصغيرة.. ثم أشار بيده إلى السيارة الواقفة بجانب الرصيف أمام المشفى، تابع: أتمنى أن لا تنظري إلى تصرفي هذا على أنه شيء من معاكسة الشبان لك..

وجدت في عينيه ضراعة طفل يريد الحصول على شيء ولكنه لا يقدر على ذلك.. وجدت الانكسار في نظرته إلي. قلت له وأنا أحاول الابتسام: لا بأس. ولكن أرجو منك أن تكون هذه المرة هي الأولى والأخيرة..

قطعت الممرضة كلامه وهي تنظر إليّ، ثم تابعت بصوت خافت: هكذا كانت بداية قصة حبنا..

وأضافت بعد حين من الصمت: لقد حاولت التهرب منه أول الأمر، بخاصة عندما عرفت ابن من يكون.. ولكنني لم أستطع الاستمرار في المقاومة، كان قد أصر على حبه لي.. وشيئاً فشيئاً

استطاع أن يتسلل إلى قلبي..

وقامت دفعة واحدة كأنها تشعرني بأنها تكلمت كثيراً، أكثر من اللازم عن قصة حبها، ثم قالت: أرجو أن تعفيني من بقية التفاصيل، لأنها . . ولم تكمل أطرقت مضطربة ومضت عني بسرعة.

سأتحدث الآن عن الوقائع الخاصة بي من وقائع هذه القصة التي دفعتني أحداثها من دون رغبة مني أو معرفة إلى خضمها.

ففي صباح اليوم الأول من الأحداث استيقظت على قرع شديد.. وعندما فتحت الباب وأنا هلع رأيت أمامي ثلاثة رجال بحلة سوداء، سألني أحدهم دون أن يلقي علي التحية، هل أنت الطبيب. أجبته: نعم. فقال لي آمراً: يجب أن تبقى في غرفتك ولا تحاول الخروج منها حتى نأذن لك بذلك..

اجتاحني غضب شديد لوقاحتهم. فتقدمت منهم وأنا أهتف برئيس الممرضين، أن يأتي ويخبرني عن هؤلاء الذين اقتحموا علي غرفتي.. ولكني قبل أن أصل إليهم دخل أحدهم وكان يشبه ذاك الذي وصفه مريضي في إحدى قصصه وقال لي: دكتور، كن هادئاً، وتصرف كرجل عاقل.. وإلا!

ومد في وجهي مخالب خلعت قلبي من صدري، تراجعت إلى الوراء مستسلماً، سألت نفسي: هل أنا في عالم اليقظة أم في المنام؟ وانسدلت أمامي ستارة سوداء بحيث لم أعد أرى شيئاً بعد أن لكمني أحد الأوغاد الثلاثة على وجهي.

عندا أفقت كان الليل قد حل، ورئيس الممرضين، مع ثلاث ممرضات حولي نظرت إلى وجوههم الجذعة كأنني أستفسر منهم ما حدث؟ قالوا لي راجين: دكتور نرجو أن تهدأ، وأن لا تعرقل عملهم، أنهم أقوى مما تتصور! لقد طلبوا منا أن نخبرك بأن لا تحدث ضجة، وان حاول ذلك سندفنه حياً معه...

لم أستوعب معنى ما أخبروني به، فسألتهم: من؟

أجابني رئيس الممرضين: رجال، أرسلهم شقيق المريض الأكبر.

سألت: لماذا؟

أجابوا: حكاية طويلة. والآن ليس وقت الحكايات وسردها.

قلت بغضب: وقت ماذا اذن؟ هل ندعهم يخربون المشفى؟

قال رئيس الممرضين: دكتور أرجوك أن تهدأ. أنت لا تعرف بعد ماذا جرى خلال إغمائك وغيابك عن الوعي!

سألته: ماذا جرى؟

أجاب: أشياء مثيرة..

سألته: مثل ماذا؟

أجابني باختصار: لقد اكتشفوا أمر الممرضة فاعتقلوها! أما المريض فقد انتحر!

قبل أن أحمل حقائبي وأرحل عن المشفى وقفت بباب غرفتي. كنت أرى من فتحة الممر الطويل ذاك البناء الذي قضى فيه المريض جمال الحلبي ثلاث سنوات بعد عودته من باريس، لقد اصبح البناء كومة من حجارة وتراب وأسياخ حديد، كأن زلزالاً قد ضربه من الداخل فانهار بعضه فوق بعض..

كان أمر الهدم من الشقيق الأكبر للمريض. رفض أن يمنحه إلى إدارة المشفى، كان قد طلب من إدارة المشفى أن يبقى أمر انتحار أخيه سراً، وقد التزم المشفى بطلبه.. ولكن العالم، كما يقال: اصبح صغيراً، فلا يمكن لأحد إخفاء مثل هذه الأخبار والأحداث، فتسرب خبر الانتحار و انتشر.. ولكن برغم هذا فقد استطاع الشقيق الأكبر أن يطوق الخبر ويقول: انه مجرد إشاعة يحاول أعداء الأسرة النيل من مكانتها الاجتماعية والسياسية. لأن شقيقه جمال كان في باريس يحضّر رسالة الدكتوراه... عندما توفي نتيجة التهاب حاد في الكبد...

وصلتني أخبار الاستعدادات الضخمة التي قام بها شقيق جمال الحلبي للدفن التي اعتبرتها أول الأمر مبالغ فيها، ولكني اقتنعت بها عندما تحدثوا لي عنها كشهود عيان، لقد كلفت العملية مليون ليرة، قيل إن المزرعة ظلت أسبوعاً كاملاً، تستقبل المعزين ليل نهار وتودعهم، يقال إن المعزين جاؤوا من أركان الدنيا الأربعة، ولم تبق شخصية سياسية وثقافية واجتماعية إلا وقدمت التعازي لأسرة الفقيد.

حلب /1993

حلب - سورية - ص. ب 6333 - BP. 6333 ALEP SYRIA

هاتف 4 4 6 8 8 7 5 ❖ فاكس 2222510 (21) 00963

زهور كافكا



هذه الرواية هي قصة حب تنتهي باختيار الموت، وهي ليست من قبيل "آلام فرتر"، فما يجمعها مع "الموت حباً" هو أنها من الأدب الاجتماعي، الذي بينما هو يعالج موضوعاً قديماً هو "الانتحار الغرامي" يصوّر جانباً مظلماً في الحياة الاجتماعية المعاصرة وما فيها من جشع مادي واستبدادية أبوية، وعلاقات هيمنة تقوم على الاحتيال والعنف والفساد. تدور أحداثها في مدينة عربية، ثم في باريس وأحيائها الجديدة والقديمة ويلتقي فيها منفيُّ الحب مع المنفيين السياسيين، ثم يحتل المسرح فيها مشفى المجانين ثلاث سنوات. والدراما في هذا الزمن المادي الصعب غير متكافئة بين قوة الحب وقوة السيطرة الاجتماعية المادية، فلا يجد العاشق الواقع في شرك الالتزامات الاجتماعية والقهر سبيلاً إلى تحقيق حبه سوى فعل اختيار الموت.

ولهذه الرواية رواة ممسرحون: يروي البطل الشطر الأكبر منها؛ وبأسلوبه الواقعي السلس يصوّر الكاتب أحداث الرواية وما فيها من اغتراب إنساني يجد ملاذه عند كافكا حتى لُقِّب البطل كافكا. إنها رواية بمقدار ما تثير الكوامن الإنسانية توحي وتحتج وتحرض.

محمود منقذ الهاشمي

مركز الإنماء الحضاري CEC
CENTER- ESSOR ET CIVILISATION